المبحث الثاني
الدروس والعبر من سرية بئر معونة (خيانة وقتل القراء السبعين)

١ ـ لا وقف لمسيرة الدعوة:

يقول الشيخ الغزالي: «حزن المسلمون لفقدانهم عاصمًا وصحبه ﷺ، ولمصرع أسيرَيهم على هذا النحو الفاجع، فقد خسروا فريقًا من الدعاة الأكفاء الشجعان يحتاج إليهم الإسلام في هذه الفترة من تاريخه، ثم إن اصطياد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجسًا وقلقًا؛ إذ إن ذلك المسلك دل على مبلغ طماعية العرب في أهل الإيمان واستهتارهم بأرواحهم وجرأتهم على النيل منهم، دون تخوف أو محاذرة قصاص!

ومع أن هذه الواقعة توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أي وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة؛ إلا أن ضرورة بث الدعوة ـ مهما فدحت الخسائر ـ جعلت النبي ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لابد منه، كالتاجر الذي يتحمل المغارم الثقيلة حينًا من الدهر؛ لأن الانسحاب من السوق ـ بغية تجنبها ـ قضاء عليه، فهو يبقى متجملًا حتى تهب الريح من جديد رخاء تعوِّض ما فقد؛ وذلك سر استجابة الرسول ﷺ لأبي براء عامر بن مالك الملقَّب بملاعب الأسنَّة حين عرض عليه أن يرسل وفدًا من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد.

وقد أبدى النبيُّ ﷺ خشيته من أن يصاب رجاله بسوء، وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذمامها، فقال أبو براء: أنا لهم جار!». [فقه السيرة للغزالي ٢٨٦-٢٨٧].

ويقول أ/ فتح الباب: «لم تكن مأساة يوم الرجيع لتصد رسول الله ﷺ عن إيفاد بعوثه إلى القبائل التي تطلب تعليمها شرائع الدين، فتلك مهمة دينية سامية لا ينبغي أن يقف في سبيلها خوف أو تردد، ولابد من نشر الإسلام في الجزيرة العربية مهما كانت التضحيات، وإذا كانت الغزوات جهادًا في سبيل الله يؤجر عليه أصحابه أحياء أو أمواتًا فإن التوعية بالعقيدة لا تقل عنه مثوبة عند الله؛ لأن العلم ركن أساسي من أركان الدولة الإسلامية، ومن ثم فإن الاضطلاع برسالته جهاد أي جهاد، وإن مواجهة مسؤوليات الدعوة في أوقات السلم وأوقات الحرب لأمر حتمي لا بديل له.

ولقد بكى المسلمون شهداء يوم الرجيع الذين استشهدوا في سبيل الدعوة الخالدة، وراحوا ضحايا الغدر والخديعة، ورأى رسول الله ﷺ أنه لا مناص من المضي قدمًا في إرسال مبعوثيه لهداية الناس، فذلك هدف رئيس لا يمكن العدول عنه، ولا ينبغي أن يقف في سبيله حائل، أما الوسيلة فيمكن تعديلها بما يكفل تحقيق ذلك الهدف دون خسارة تصيب المسلمين، وهذا التعديل هو الدرس المستخلص من يوم

الرجيع، فليكن الحذر عاصمًا من سوء العاقبة، وليتحقق الرسول ﷺ من صدق مَنْ يلجأ إليه من الأعراب ملتمسًا منه بعث بعض أصحابه للتعليم والترشيد، ذلك أحرى أن يحقق نجاح الرسالة، وأن يعصم في الوقت نفسه دماء المسلمين ويحفظ هيبتهم بين القبائل». [القيم الخلقية لفتح الباب ١٠٤-١٠٥].

٢ ـ أهمية معرفة الداعية لمداخل النفوس البشرية:

يقول الشيخ عرجون: «والنبي ﷺ آتاه الله من الحكمة وحسن التأتي للأمور وتدبيرها ما لم يؤته أحدًا غيره، فهو ﷺ أعلم بمداخل النفوس التي تحتف به والتي تفد إليه، والأمور الشعورية والنفسية لها عند الزعماء الذين يعيشون في البوادي شأن عظيم يدركه النبي ﷺ إدراكًا يجعل منه علاجًا لمرض نفوسهم، ففي الوقت الذي يرد هدية أبي براء، ويقول له ما يشعره نفسيًّا أنه يرد هديته لأنه لا يقبل مصافاة المشركين المحاربين له بقبول هداياهم ـ يجيبه إلى طلبه فيرسل له العسل ليستشفى به.

وهذه أمور لها أثرها في العواطف والمشاعر، وكان النبي ﷺ قد دعا أبا براء إلى الإسلام فلم يسلم، ولكنه لم يبعد، ووقف موقفًا أطمع النبي ﷺ في إسلامه وإسلام قومه بقوله: **يا محمد إني أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا.**

فموقف النبي ﷺ مع أبي براء كان موقفًا تمليه الحكمة السياسية في أسلوب تبليغ دعوته ونشر رسالته بما اشتمل عليه هذا الموقف الكريم من ضروب مكارم الأخلاق، والتولج إلى مداخل النفوس البشرية، ولا سيما عند صنف من الناس بما يلائم طبائعهم بالرضا والنظر فيما يدعوهم إلى الدخول فيه.

وفي ظل هذا الرجاء عرض ﷺ الإسلام على أبي براء فلم يقدم ولم يحجم، ولعله إنما تلبث بنفسه عن الدخول في الإسلام قبل قومه مع إدراكه شرف هذا الدين وحسنه ليتحقق رجاؤه في قومه إذا وفد إليهم وحدثهم عن النبي ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن دينه ودعوته إلى الله وتوحيده، ولهذا طلب إلى النبي ﷺ أن يبعث معه نفرًا من أصحابه إلى قومه، يدعونهم إلى ما يدعو إليه رسول الله ﷺ، روى ابن سعد: أن أبا براء قال لرسول الله ﷺ: **يا محمد، لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك لرجوت أن يجيبوا دعوتك ويتبعوك**، فقال ﷺ: «**إني أخاف عليهم أهل نجد**»، فقال أبو براء: **أنا لهم جار أن يعرض لهم أحد**، فبعث النبي ﷺ سبعين من الأنصار شببة، يُسمون القراء، وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي رضي الله عنه». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٦٠-٦١].

ويقول د/ أبو شهبة: «وقد يقول قائل: كيف يوافق النبي ﷺ على إيفاد هاتين السريتين مع أناس ليسوا بمسلمين، وفي جوار رجل لم يدخل الإسلام، مع احتمال أن يكون هذا استدراجًا للمسلمين ومكيدة للإيقاع بهم، وقد كان النبي ﷺ من رجاحة العقل وبُعد النظر، والمواهب السياسية بالمنزلة التي لا تدفع؟ وللجواب عن ذلك نقول:

(١) إن حفظ الجوار كان من خيرة فضائل العرب والخلق المتأصل فيهم، فاحتمال الغدر بهم مستبعد، ولا سيما أن القراء كانوا في جوار رجل له منزلته في بني عامر، وهو أبو براء؛ ولذلك لم يقبل بنو عامر أن يخفروه في جواره، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سُليم.

(٢) إن إيفاد هاتين السريتين لم يكن إلا حلقة من حلقات الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى هذا الدين، والسهر على نشره بشتى الوسائل، أليس غاية ما يحتمل أن يموتوا شهداء؟ وهذا ما كان يرجوه كل مسلم آنئذ، وصدق الله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[التوبة:٥٢]، إما النصر والغنيمة، أو الموت والشهادة». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤٢].

ويقول د/ الغضبان: «ومن خلال هذا الإيضاح ندلف إلى سرية بئر معونة، فأبو البراء عامر بن مالك سيد بني عامر وسيد أهل الوبر هو الذي قَدِم المدينة، كما روى ابن إسحاق يريد أن يفتح صفحة مع رسول الله ﷺ بعيدة عن المواجهة والحرب، وكان قد تقدمت به السن وحنكته التجارب، وأدرك مدى القوة والنفوذ لمحمد ﷺ في المدينة وهو أشبه ما يكون بشيخ بني عامر الذي صاح عندما سمع بخبر محمد ﷺ: يا بني عامر، هل لها من تلاف، هل لذناباها من مطلب، والذي نفسي بيده ما تقوَّلها إسماعيلي قط، فأين رأيكم كان عنكم.

ولعل أثر هذا الموقف حدا بأبي البراء ملاعب الأسنة أن يمضي بنفسه إلى محمد ﷺ ويختبر دعوته وقوته.

وكان ذلك المدخل عن بني عامر في غاية الأهمية لندرك سر حرص رسول الله ﷺ على هداية بني عامر، وهذا سيدهم هو الذي يطلب الدعاة لقومه، فدخول بني عامر بن صعصعة في الإسلام يعتبر من أكبر الأحداث في الأرض العربية، ويعتبر نقطة تحول كبرى في تاريخ الإسلام خاصة بعد محنة أُحد، ولكن خشية رسول الله ﷺ من مجاهيل الأعراب والبادية وغدر الأعراب لم يخفها أمام سيد بني عامر، فكان جواب أبي البراء حاسمًا: لا تخف إني لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد.

ومن يجرؤ على أن يخفر ذمة أبي البراء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وقانون الإجارة في قبائل العرب قانون يدين به العرب جميعًا، ولعل من مصلحة الإسلام ألا يعلن أبو البراء إسلامه أو أن يسلم؛ لأن القانون يُخرق آنذاك ولا يُعتد به، وكما تقول الرواية: **فلم يسلم ولم يبعد وقال: يا محمد، إني أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا وقومي خلفي**، إن صورة أبي طالب سيد بني هاشم ـ تتجسد من جديد ـ الذي تبنى دعوة رسول الله ﷺ ووراءه الحزب الهاشمي مستعد للموت عن آخر فرد فيه لحماية المصطفى ﷺ، إن الذي أراده رسول الله ﷺ من بني عامر في منى قبل سبع سنين، إنه الآن يتحقق على يد سيد بني عامر».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٦٨-٢٦٩].

٣ ـ بَيَانُ حُكْمِ قَبُولِ هَدَايَا الكُفَّارِ:

ورد في عرض السرية: «عَنْ كَعْبِ بن مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ مُلاعِبُ الأَسِنَّةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِهَدِيَّةٍ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الإِسْلامَ، فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنِّي لا أَقْبَلُ هَدِيَّةَ مُشْرِكٍ**».

وقد ناقش الإمام الطحاوي هذه المسألة بقوله: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ عُبَيْدِ بْنِ عِمْرَانَ الأُرْدُنِيُّ أَبو أَيُّوبَ بِطَبَرِيَّةَ، قَالَ: ثَنَا خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ الْمُقْرِئُ الْبَزَّارُ، قَالَ: ثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي التَّيَّاحِ، عَنْ الحَسَنِ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ ﷺ قَالَ: وَكَانَ حَرَمِيَّ رَسُولِ الله ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً فَرَدَّهَا، وَقَالَ: «**إِنَّا لَا نَقْبَلُ زَبْدَ الـمُشْرِكِينَ**».

وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: ثَنَا خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: ثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ ابْنِ عَوْنٍ قَالَ: سَأَلْتُ الحَسَنَ: مَا زَبْدُ الـمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: رِفْدُهُمْ.

وَحَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: ثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ أَبِي الحَجَّاجِ قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: ثَنَا أَبُو التَّيَّاحِ قَالَ: حَدَّثَنِي الحَسَنُ أَنَّ عِيَاضَ بْنَ حِمَارٍ، وَكَانَ حَرَمِيَّ رَسُولِ الله ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَلَـمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ أَتَاهُ بِنَاقَةٍ يُهْدِيهَا إِلَيْهِ، فَلَـمَّا رَآهَا قَالَ: «**يَا عِيَاضُ مَا هَذِهِ؟**» قَالَ: أَهْدَيْتُهَا لَكَ، قَالَ: «**قُدْهَا**» فَقَادَهَا، قَالَ: «**رُدَّهَا**» فَرَدَّهَا، قَالَ: «**يَا عِيَاضُ هَلْ أَسْلَمْتَ بَعْدُ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: فَلَمْ يَقْبَلْهَا، وَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْنَا زَبْدَ الْمُشْرِكِينَ**».

قَالَ: وَالعَرَبُ تُسَمِّي الهَدِيَّةَ الزَّبْدَ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الحَرَمِيُّ: يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الحَرَمِ، وَيَكُونُ الصَّدِيقَ أَيْضًا يُقَالُ لَهُ حَرَمِيٌّ.

وَحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ الحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الله البَغْدَادِيُّ المَعْرُوفُ بِالصَّقَلِّيِّ قَالَ: ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ المَكِّيُّ قَالَ: ثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ بَشِيرِ بْنِ الْمُهَاجِرِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «أَهْدَى أَمِيرُ القِبْطِ لِرَسُولِ الله ﷺ جَارِيَتَيْنِ أُخْتَيْنِ قِبْطِيَّتَيْنِ وَبَغْلَةً، فَأَمَّا البَغْلَةُ فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَرْكَبُهَا، وَأَمَّا إِحْدَى الجَارِيَتَيْنِ فَتَسَرَّاهَا فَوَلَدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمَ، وَأَمَّا الأُخْرَى فَأَعْطَاهَا حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ ﷺ.

حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى قَالَ: نَا عَبْدُ الله بْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدٍ القَارِي «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُقَوْقِسِ صَاحِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ـ يَعْنِي بِكِتَابِهِ مَعَهُ إِلَيْهِ ـ فَقَبِلَ كِتَابَهُ وَأَكْرَمَ حَاطِبًا، وَأَحْسَنَ نُزُلَهُ، ثُمَّ سَرَّحَهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَأَهْدَى لَهُ مَعَ حَاطِبٍ كُسْوَةً وَبَغْلَةً بِسَرْجِهَا وَجَارِيَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا أُمُّ إِبْرَاهِيمَ، وَأَمَّا الأُخْرَى فَوَهَبَهَا لِجَهْمِ بْنِ قَيْسٍ العَبْدَرِيِّ، فَهِيَ أُمُّ زَكَرِيَّا بْنِ جَهْمٍ الَّذِي كَانَ خَلِيفَةً لِعَمْرِو بْنِ العَاصِ عَلَى مِصْرَ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَإِنَّمَا أَدْخَلنَا هَذَا الحَدِيثَ فِي هَذَا البَابِ لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدٍ القَارِيَّ مِمَّنْ وُلِدَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَيُقَالُ: إِنَّهُ قَدْ رَآهُ فَدَخَلَ بِذَلِكَ فِي صَحَابَتِهِ ﷺ.

فَسَأَلَ سَائِلٌ عَنْ الوَجْهِ الَّذِي بِهِ رَدَّ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ عِيَاضٍ هَدِيَّتَهُ (وكذلك رد هدية أبي البراء ملاعب الأسنة)، وَعَنْ الوَجْهِ الَّذِي بِهِ قَبِلَ مِنْ الْمُقَوْقِسِ هَدِيَّتَهُ، وَكِلَاهُمَا كَافِرٌ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ ـ بِتَوْفِيقِ الله ﷻ وَعَوْنِهِ ـ أَنَّ كُفْرَ عِيَاضٍ كَانَ كُفْرَ شِرْكٍ بِالله ﷻ وَجُحُودٍ لِلبَعْثِ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ، وَكُفْرَ الْمُقَوْقِسِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُقِرًّا بِالبَعْثِ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ، وَمُؤْمِنًا بِنَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ الله تَعَالَى وَهُوَ عِيسَى ﷺ.

وَكَانَ عِيَاضٌ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مَطْلُوبِينَ بِالزَّوَالِ عَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَبِتَرْكِهِ إِلَى ضِدِّهِ وَهُوَ التَّصْدِيقُ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَالإِيمَانُ بِهِ.

وَكَانَ الْمُقَوْقِسُ وَمَنْ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَطْلُوبِينَ بِالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَالإِيمَانِ بِهِ، وَالثُّبُوتِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ دِينِ عِيسَى ﷺ.

وَكَانَ عِيَاضٌ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ غَيْرَ مَأْكُولَةٍ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا مَنْكُوحَةٍ نِسَاؤُهُمْ، وَكَانَ الْمُقَوْقِسُ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مَأْكُولَةً ذَبَائِحُهُمْ وَمَنْكُوحَةً نِسَاؤُهُمْ.

فَكَانَ الفَرِيقَانِ، وَإِنْ كَانُوا جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ يَخْتَلِفُ كُفْرُهُمْ وَتَتَبَايَنُ أَحْكَامُهُمْ، وَكَانَ كُلُّ شِرْكٍ بِالله ﷻ كُفْرًا، وَلَيْسَ كُلُّ كُفْرٍ بِالله ﷻ شِرْكًا، وَكَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ لَا يُجَادِلَ أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الـمُقَوْقِسُ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ التَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى ﷺ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ كُتُبَ الله تَعَالَى الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ ـ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ ـ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَقَبِلَ هَدِيَّةَ مَنْ أَمَرَ رَبُّهُ ﷻ أَنْ لَا يُجَادِلَهُ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الأَحْسَنَ قَبُولُ هَدِيَّتِهِ مِنْهُ، وَرَدَّ هَدَايَا الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ؛ وَلِأَنَّ رَبَّهُ ﷻ أَمَرَهُ بِمُنَابَذَتِهِمْ وَبِقِتَالِهِمْ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ﷻ، وَفَصَلَ بَيْنَهُمْ ﷻ فِي كِتَابِهِ، فَخَالَفَ بَيْنَ أَسْمَائِهِمْ وَبَيْنَ مَا نَسَبَهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ وَهُمْ اليَهُودُ، ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ وَهُمْ أُمَّةٌ بَيْنَ اليَهُودِ، ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ مِنْهُمْ الْمُقَوْقِسُ، ﴿وَٱلۡمَجُوسَ ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو العَجَمِ الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِبَعْثٍ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الله ﷻ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ، وَهُمْ فِي العَجَمِ كَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ فِي العَرَبِ إِلَّا فِيمَا يُخَالِفُونَهُمْ فِيهِ مِنْ أَخْذِ الجِزْيَةِ مِنْهُمْ، ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ ﴾[الحج:١٧] وَهُمْ عَبَدَةُ الأَوْثَانِ مِنْ العَرَبِ الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِبَعْثٍ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الله ﷻ، وَكَذَلِكَ كَانَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ مِنْ تَفْرِيقِهِ بَيْنَ هَذَيْنِ الفَرِيقَيْنِ فِي الأَسْمَاءِ، وَفِي الأَحْكَامِ.

كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى قَالَ: أَنْبَأَنَا عَبْدُ الله بْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَعَبْدُ الله بْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ القَاسِمِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: شَهِدْتُ خُطْبَةَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حَجَّةِ الوَدَاعِ فَقَالَ قَوْلًا كَثِيرًا حَسَنًا جَمِيلًا، وَكَانَ فِيهَا: «**مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ مِثْلُ الَّذِي لَنَا، وَعَلَيْهِ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ المُشْرِكِينَ فَلَهُ أَجْرُهُ، وَلَهُ مِثْلُ الَّذِي لَنَا، وَعَلَيْهِ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَا**».

فَكَانَ فِيمَا تَلَوْنَا مِنْ كِتَابِ الله ﷻ، وَفِيمَا رَوَيْنَا مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ الله ﷺ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى تَبَايُنِ الفَرِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَا فِي الكُفْرِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَفِي مُنَابَذَةِ أَهْلِ الشِّرْكِ مِنْهُمَا، وَفِي أَنْ لَا يُجَادَلَ أَهْلُ الكِتَابِ مِنْهُمْ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَفِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى اتِّسَاعِ قَبُولِهِ هَدَايَاهُمْ مِنْهُمْ، فَقَبِلَ رَسُولُ الله ﷺ هَدِيَّةَ مَنْ قَبِلَ هَدِيَّتَهُ مِنْهُمْ لِذَلِكَ، وَرَدَّ هَدِيَّةَ مَنْ رَدَّ هَدِيَّتَهُ عَلَيْهِ مِنْ الفَرِيقِ الآخَرِ.

[تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٦/ ١٩٤-١٩٨].

٤ ـ لا إكراه في الدين:

يقول د/ أبو فارس: «لقد عرض الرسول ﷺ على أبي براء عامر بن مالك المشهور بملاعب الأسنة قبيل حادثة بئر معونة الإسلام عليه فأبى، فلم يغضب منه، ولم يقتله، بل ظل بينهما معاملة واتصال وتعاون، وهو الذي أشار على رسول الله ﷺ أن يرسل رهطًا من المسلمين إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام ويرشدونهم إلى الخير، فأخذ الرسول ﷺ رأيه بعد أن استعد أبو براء أن يجيرهم».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٦].

٥ ـ أهمية التعاقدات والتحالفات والمعاهدات حسب حاجة المسلمين:

يقول أ/ حوى: «نلاحظ أن التعاقدات والتحالفات والمعاهدات كانت جزءًا لا يتجزأ من سياسة الرسول ﷺ وحركته الدائبة، وقد حققت له مصالح، وكانت أحيانًا سببًا في مآس، والمسلم مكلف أن يجتهد في الموقع الذي هو فيه، وليس عليه أن يعرف الغيب، والحذر والاحتياط مطلوبان».

[الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٢٥].

٦ ـ الاستفادة من قوانين وأعراف المجتمع في تبليغ الدعوة:

يقول أ/ حوى: «ومن أهم ما يؤخذ من حادثة بئر معونة أنه إذا فُتح لنا باب الدعوة إلى الله سِلمًا فعلينا أن نلجه، وأن نرسل الوفود والبعوث لذلك، وهذا يفتح أمامنا آفاقًا واسعة في العمل الإسلامي على الأرض الإسلامية أو خارجها، فحيثما أُعطينا حرية الدعوة إلى الله فعلينا أن ندعو مستفيدين من الأعراف والقوانين، ويسعنا في هذه الحالة أن ننصح وأن نعمل من خلال القانون للتغيير الإسلامي الشامل، ولكن الاكتفاء بهذا القدر من العمل منوط بالفتوى من أهلها». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٣٢].

٧ ـ الدعاة والعلماء في مقدمة صفوف المجاهدين:

يقول د/ الغضبان: «ولأهمية الأمر وخطورته اختار له رسول الله ﷺ قرة عينه من أصحابه، واختار سبعين منهم لهذه المهمة الخطيرة.

إنهم من خيار هذه الأمة ومن الجيل الجديد الذي تربى بالقرآن، وبرحيق النبوة، فرَّغ نفسه لطاعة الله ورسوله ﷺ، فليلهم علم وعبادة، إنهم أحلاس الليل ورهبانه، يتعلمون القرآن ويصلون به، وبه يناجون ربهم ـ جل شأنه ـ وفي النهار تكفلوا بمسؤولية الضيافة النبوية، مسؤولية الدولة في إطعام الفقراء، فيستعذبون الماء، ويحتطبون ويشترون الطعام لله، ولمرضاته، لا يؤويهم سقف، ولا يطمئنون لأهل، فنهارهم جد وجهد وكفاح؛ ليسدوا ثغرة الدولة وحاجتها لإخوانهم الفقراء وأهل الصفة، وليلهم جلساء الله ـ تعالى ـ مع كتابه وعبادته.

هذه هي سمة الجيل الجديد الذي يربيه ﷺ ويدخره للدعوة، ويعده لحمل الإسلام إلى كل صقع، فلما لمحت بارقة بني عامر، وحاجتهم إلى الدعاة، كان هذا المدخور عنده، وكان هذا الكنز بين يديه، فوجههم جميعًا للدعوة إلى الله في الصحراء المترامية الأطراف، وقد تمرسوا بالعمل والكفاح، وتمرسوا حياة الخشونة والعمل، فهم يحتطبون ويبيعون، ويستعذبون الماء، وهم الجيل المثقف الذي عمَّر قلبَه القرآنُ، وعاش فيه وله، مع الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ أضاف إليهم عددًا من الشخصيات القيادية؛ لتكون معهم في هذه المهمة الضخمة الدعوية.

إننا أمام خط تربوي جديد في المنهج التربوي للسنة النبوية، هذا الخط هو: تربية الدعاة على الجهاد وعلى الكفاح وإرسالهم في مهمات دعوية خالصة؛ ليتمثل بهم الإسلام، ويكوِّنون القدوة الحية المتحركة في المجتمع، وقد رأينا الطراز الرفيع لسرية الرجيع، وها نحن نرى هذا الطراز الرفيع كذلك».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٦٩-٢٧٠].

٨ ـ اختلاف واسع بين روايتي الصحيحين وابن إسحاق في عدد سرية القراء:

يقول الشيخ عرجون: «وهذا العدد في تقدير رجال السرية (بسبعين) هو رواية الصحيحين، قال السهيلي: وهو الصحيح، وذهب ابن عقبة وابن إسحاق إلى أنهم كانوا أربعين رجلًا، وهذا فارق كبير جدًّا لا يعدل عن رواية الصحيحين إليه، وقد ازداد بُعدًا من زعم أنهم كانوا ثلاثين.

وقد حاول ابن حجر على عادته أن يوفق بين هذه الروايات المتباعدة في تقدير عدد سرية القراء، فزعم أنه يمكن أن يكون الأربعون كانوا رؤساءً، وبقية العدد أتباعًا.

ضعف كلام ابن حجر في الجمع بين الروايتين: وهذا كلام ـ كما يرى ـ ضعيف واهن لا يدفع اعتراضًا ولا يحل إشكالًا، لأن سرية القراء وهم من صفوة أصحاب رسول الله ﷺ بما وصفوا به من نعوت الإخلاص ورسوخ اليقين والزهد في الدنيا وطرحها وراء ظهورهم، واشتغالهم بخدمة الفقراء والمساكين من إخوتهم المنقطعين لعبادة الله، كل ذلك وغيره لا يجعل سبيلًا إلى تقسيم سريتهم إلى رؤساء وأتباع، وما كان يليق بالحافظ ابن حجر أن يعدل عن الأخذ بظاهر رواية الصحيحين إلى وضع روايات أصحاب المغازي معها في ميزان، ثم يُعَنِّي نفسه بمثل هذه التأويلات المتعسفة.

والفرق بين عدد رجال السرية في الصحيحين، وروايات أصحاب السير والمغازي كبير جدًّا ولاسيما في رواية من زعم أنهم كانوا ثلاثين رجلًا، وإن كان ابن حجر قد وَهَّم هذا القول، ولكنه هدم بيده ما شيده بفكره، فنقل الدفاع عن هذا القول المتهاوي عن صاحب (الغرر) أن رواية القليل لا تنافي رواية الكثير، وهو من باب مفهوم العدد.

ويؤكد ما اخترنا في سبب بعث هذه السرية حديث أنس ﷺ عند البخاري من طريق قتادة، قال: **إن رعلًا وذكوان، وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ**، وقد اختلف أهل العلم في تفسير المقصود من هذا الاستمداد، وأحسن ما قيل فيه ما قاله ابن حجر: ولا مانع أن يستمدوه ﷺ في الظاهر للدعاء للإسلام، وقصدهم الغدر وهذا أقرب الاحتمالات، ويدل عليه ما قدمناه من الأسباب التي احتفت بالقصة وربطها بقصة أهل (الرجيع) وقتلهم غدرًا للأخذ بثأر فاجر هذيل خالد بن سفيان بن نبيح ـ لعنه الله ـ بسيف البطل الفدائي عبد الله بن أنيس الأنصاري ﷺ، وعلى هذا الاحتمال اعتمد القسطلاني في مواهبه في سياق كلام ابن إسحاق». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون** ٤/ ٦١-٦٢].

٩ ـ فراسة القيادة في اختيار ذوي الكفاءات:

يقول ل/ خطاب: «لقد كان المُنْذر بن عمرو ﷺ من رجالات قومه، وحسبه أن النبي ﷺ اختاره لهم نقيبًا؛ لأنه كان أتقاهم ومن رؤسائهم.

ولم يكن وحده من آل بيته متميِّزًا بالتقوى، فقد كانت أخته: مندوس بنت عمرو، وهي أم سلمة بن مخلَّد، وأُخته سَلمى بنت عمرو من المبايعات رسول الله ﷺ، وكانت أمه من المبايعات ـ أيضًا ـ فهو من بيت تقوى انتشر الإسلام فيه مبكرًا، وأثرُ المنذر ﷺ في هذا البيت ظاهر العيان.

وفي المُنْذر ﷺ قال النبي ﷺ: «**أَعْنَقَ لِيَمُوتَ**» أي: مشى للموت، وهو يعرفه.

وكان المُنْذر ﷺ يكتب في الجاهلية، يوم كان الذين يكتبون قليلين، فهو من علماء المسلمين الأولين، وكانت الكتابة في العرب قليلًا.

ولا نعلم سنة مولده، والأغلب أنه استشهد وهو في ريعان الشباب.

أما سمات المُنْذر ﷺ القيادية: فهو قائد من قادة العقيدة، اختاره النبي ﷺ نقيبًا يدعو إلى الله، فعاش نقيبًا واستشهد نقيبًا، وكان في سريته نقيبًا، يضرب لهم في نفسه أروع الأمثال في: البذل، والتضحية، والفداء.

ولعل قولة أحد رجاله: «**ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المُنْذر بن عمرو**» خير دليل على تعلق رجاله به وتعلقه بهم؛ لأنه أعلمهم بالدين وأتقاهم وأصبرهم وأكثرهم شجاعة وإقدامًا، فأعنق ليموت، كما وصفه النبي ﷺ؛ لأنه أسرع إلى الموت مقْبلًا غير مدْبر، فرحًا بلقاءِ الله، طالبًا الشهادة، وقع على الموت، ولم يقع الموت عليه، فسقط شهيدًا ولم يسقط السيف من يده.

لقد كان المُنْذر ﷺ أحد اللبنات القوية المتينة التي شُيِّد عليها صرح الإسلام القوي المتين.

وليس كالشهداء من أجل عقيدتهم لبنات تشيد عليها صروح العقيدة التي لا يمكن أن تُقْهر أبدًا.

ويذكر التاريخ: أن المُنْذر ﷺ من السابقين الأولين إلى الإسلام من بني الخزرج الأنصار.

ويذكر له: أنه كان نقيب قومه من بني ساعدة الخزرج، اختاره النبي ﷺ ليقود ركب الدعوة في قومه بخاصة وفي الأنصار بعامة بالمدينة المنورة.

ويذكر له: أنه بايع النبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، فكان من الذين مهدوا لهجرة النبي ﷺ والمسلمين من مكة إلى المدينة.

ويذكر له: أنه نال شرف صحبة النبي ﷺ، وشرف الجهاد تحت لوائه، فشهد: بدرًا مجاهدًا، وشهد أحدًا قائدًا مرؤوسًا.

ويذكر له: أنه قائد سرية الدُّعاة من الشباب القُّراء، الذين استُشهدوا في سبيل الله.

ويذكر له: أنه تهيَّأت له في بئر معونة فرصة الحياة، فآثر الموت على الحياة، وما عند الله على ما عند الناس.

رضي الله عن الصحابي الجليل، العَقَبِي النقيب، البدري الشهيد، القارئ الفقيه، المُعْنِق ليموت، المنذر بن عمرو السَّاعِدِي الخزرجي الأنصاري». [قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٢٩-٢٣١].

١٠ ـ لابد للدعوة من تضحيات:

يقول د/ فيض الله: «رأينا كيف غدر حلفاء هذيل بالنَّفَر الستة من القُرَّاء، الذين أرسلهم النبي ﷺ معلِّمين ومفقِّهين في غزوة الرجيع، وكيف غدر عامر بن الطفيل، ومن والاه، بالسبعين من القرَّاء، الذين استنفروا للدعوة إلى الله، والتفقيه في دين الله، في مجزرة رهيبة دنيئة.

وقد تركت هذه الغزيات، في نفس الرسول ﷺ آثارًا غائرةً، بعيدة الأعماق، حتى إنه لبث شهرًا، يقنت في صلاة الفجر، داعيًا على قبائل سليم، التي عصت الله ورسولَه.

لكن ذلك لم يَفُتَّ في عضد المسلمين، ولا فتَّر من حَمِيَّتِهم في الدعوة إلى الله، ولا كسَّر من همتهم في الانطلاق الماضي في سبيل الله، وخدمة دينه.

ولـمَّا قُتِل أصحاب عضل الستة، وجَّه من بعدهم إلى عامر في جهات نجد أكثر من عشرة أضعافهم، فلاقوا حتفهم إلا واحدًا منهم، ومع ذلك الحزن العميق، الذي وَرَّثته هذه الأحداث الغادرة في نفوس المسلمين، فقد استمر إرسال السرايا، وإيفاد القُرَّاء، إلى الجهات النائية عن المدينة؛ لأن مصلحة الدعوة فوق الأنفس والدماء؛ بل إن الدعوة لا يُكتب لها النصر، إذا لم تُبذَل في سبيلها الأرواح، ولا شيء يُمَكِّن للدعوة في الأرض، مثل الصلابة في مواجهة الأحداث والأزمات، واسترخاص التضحيات من أجلها.

إن الدعوات بدون قُوَى أو تضحيات، يوشك أن تكون بمثابة فلسفات وأَخْيِلَة، تَلُفُّها الكتب، وترويها الأساطير، ثم تطويها الدَّهارير [(١)].

إن هذه الغزيَّات بَصَّرتنا بالمسؤولية الضخمة عن دين الله، والدعوة إليه، ووضعت نَصبَ أعيننا نماذج من التضحيات الفارعة الباسقة، من الأصحاب القرَّاء في خير القرون، من أجل عقيدتهم ودينهم ومرضاة ربهم، فليس لنا أن نستغلي ثمن نجاح الدعوة في تلك العهود، وقد استرخصوه واستعذبوه، وقال قائلهم ـ والسهم في مقتله: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**».

إن للسعادة ثمنًا، وإن للراحة والطمأنينة ثمنًا، وإن للمجد والسلطان ثمنًا، وثمن هذه الدعوة: دمٌ زكيٌّ يُهراق في سبيل الله من أجل تحقيق شرع الله ونظامه، وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة.

والدعوة إلى الله، أسنى مطالب المسلم، وأسمى أهداف الإنسانية، لو تجردت من أهوائها ومصالحها ورواسب الموروث، فهي أغلى من الرجال، وأثمن من الدماء، وأسمى ما في الوجود، وإنه لا يبقى في الوجود إلا واجب الوجود الحق ﷻ، وكل ما سواه، دنيا وبهتان وبطلان، فليُسخِّر كل ما سواه في ذاته، وتحقيق شرعه ونظامه، وتثبيت معالم دينه». [**صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٥١-١٥٢**].

---

(١) **الدَّهارِيرُ**: أَوَّلُ الدَّهْرِ في الزمان الماضي ولا واحد له،... وقولهم دَهْرٌ دَهارِيرٌ أَي: شديد، كقولهم: لَيْلَةٌ لَيْلاءُ... وواحدُ الدَّهارِيرَ دَهْرٌ على غير قياس، كما قالوا: ذَكَرٌ ومَذاكِيرُ.... وكأَنَّ دَهارِير جمعُ دُهْرُورٍ أَو دَهْرار... ودُهُورٌ دَهارِير مختلفة على المبالغة... قال الأَزهري: الدَّهارير جمع الدُّهُورِ أَراد أَن الدهر ذو حالين من بُؤْسٍ ونُعْمٍ، وقال الزمخشري: الدهارير تصاريف الدهر ونوائبه مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعباديد... لسان العرب لابن منظور ٩/ ١٤٤٠ ط دار المعارف.

ويقول م/ أبو راس: «على الأمة الإسلامية أفرادًا وجماعات أن تعلم أن حجم تضحياتها وهي تقوم بدورها الصحيح تجاه دينها الإسلامي الحنيف أقل بكثير منها وهي خانعة واجمة مستخزية.

وعلى الأمة الإسلامية إن أرادت عزة، إن أرادت مجدًا وسؤددًا، أن تتبادى وتتسابق نحو العلا الذي لن يحققه إلا الموت الشريف، الموت في سبيل الله ﷻ.

وعلى الأمة الإسلامية أن تعي معنى الأخوة الإسلامية، فالأخوة الإسلامية ليست شدًّا على الأيدي، وعناقًا وضغطًا للصدور وكلمات نظرية «إني أحبك في الله»، ولكن الأخوة لها طعم آخر إلى جانب هذه المظاهر.

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». [البخاري في الإيمان (١٣)].

«الْمُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ». [البخاري في الصلاة (٤٨١)، وفي المظالم والغصب (٢٤٤٦)، وفي الأدب (٦٠٢٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٥)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٠)، وأحمد عن أبي موسى الأشعري ﷺ (١٩١٢٧، ١٩١٢٨، ١٩١٦٨)].

وقوله ﷺ: **«مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»**. [مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٥ في البر والصلة (١٣٥٥٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١/ ٢٥٩ رقم ٧٥١]، والبزار [بلفظ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانَ وَجَارُهُ طَاوٍ». [مسند البزار ١٤/ ٢٦ رقم ٧٤٢٩]، وإسناد البزار حسن].

وقوله ﷺ: **«لَيْسَ بِالْمُؤْمِنِ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانًا [بِالَّذِي يَشْبَعُ]، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ»**.

[مجمع الزوائد ٨ / ٣٠٦ في البر والصلة (١٣٥٥٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٢/ ١٥٤ رقم ١٢٧٤١]، وأبو يعلى [مسند أبي يعلى الموصلي ٥/ ٩٢ رقم ٢٦٩٩ ، وقال الشيخ أسد: إسناده حسن]، ورجاله ثقات].

فأين أين الأمة الإسلامية من هذه المعاني والمفاهيم، وشعوب من الأمة الإسلامية تُباد في الشرق والغرب فلا يتململ أحد، ولا يتحرك لنجدتهم أحد، ولا يأبه لاستغاثتهم أحد.

فإن كانت أمتنا الإسلامية شعوبًا وحركات وجماعات وأفرادًا إن كانوا يريدون النصر والمجد والسؤدد فعليهم ألا يستكثروا في سبيل الله تضحية، وأن لا تقفهم التضحيات ـ وإن عظمت ـ عن المضي قدمًا على الخط الإسلامي الحر المستقيم المتميز! وإن خارت نفوسهم وضعفت هممهم فكانوا دون مستوى هذه التضحيات فعليهم أن لا يقزِّموا الإسلام ليتناسب مع قاماتهم القزمة، وعليهم أن يسلموا الراية ناصعة سليمة من كل انحراف بالدعوة ومفاهيم الدعوة إلى الله ﷻ، وعليهم أن يكون مفهوم الشهادة في سبيل الله واضحًا في نفوسهم كل الوضوح، وعليهم أن يخترقوا حاجز الخوف من الموت؟ فلقد سأل «هرقل» قائد ضباط جنده عن سر انتصار المسلمين، فقال أحدهم ـ وقد أحجم الجميع عن الإجابة: **«يا سيدي، إنهم رجال ولكن ليسوا كالرجال. يا سيدي، إنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار، ما**

منهم من رجل إلا ويحب أن يموت قبل صاحبه، وما منا من رجل إلا ويحب أن يموت صاحبه قبله»، فما كان من هرقل إلا أن قال: **لئن صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين**، وما هي إلا أيام قليلة حتى وقف هرقل يقول لدمشق: **وداعًا يا دمشق لا لقاء بعده.**

نعم، فعندما تقول الشعوب الإسلامية: **لا نخشى سجنًا، لا نخشى تجويعًا، لا نخشى تشريدًا، لا نخشى قتلًا، ولكن سجننا خلوة، تجويعنا صوم، تشريدنا سياحة، تقتيلنا شهادة، عندها ينهزم الطاغوت والكفر أمام جحافل الإيمان»**. [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٢٣-٢٢٤].

١١ ـ ألا تقعدنا المحن عن مواصلة الدعوة:

يقول أ/ فتح الباب: «وكذلك استقر عزم الرسول ﷺ على الاستمرار في إرسال الدعاة مع توخي الحيطة الكافية لتأمينهم، وذلك درس يجدر بنا الاستفادة منه، وعبرة يحسن أن نستلهمها في علاج المشكلات المماثلة، فلا ينبغي أن تقهرنا المحن مهما ادلهمت ظلماتها فنقعد باكين محسورين، ونفتح بذلك للعدو بابًا ينفذ منه إلى تحقيق مآربه الآثمة وهي تخريب الجبهة الداخلية وخفض الروح المعنوية في صفوفها، بل لابد أن نطوي صفحتها بعد أن نستخلص منها التجربة التي تقينا الوقوع في الخطأ الذي تمخضت عنه المحنة، ولنكفكف عن عَبرات الحزن وآلام الماضي، ونتهيأ لاستقبال فجر يوم جديد بلا أسى ولا ندم، فليس الألم بِمُجْدٍ في استعادة ما فات، وليست الحياة انتصارًا كلها، ولابد لليل أن ينجلي وللسحب أن تنقشع ثم يعود للصفو.

وطريق الجهاد دائمًا محفوف بالمخاطر والعبرة بالنصر الأخير، وإن الشهداء لملاقو ربهم في عليين، فلنقف دون عقيدتنا مجاهدين، فالحياة عقيدة وجهاد». [القيم الخلقية لفتح الباب ١٠٥-١٠٦].

١٢ ـ عدم الجري وراء الدعايات المغرضة بالصف المسلم:

يقول ل/ خطاب: «حاول المشركون والمنافقون أن ينالوا بدعاياتهم الضارة من معنويات المسلمين بعد أن عجزوا عن أن ينالوا منهم في ساحات القتال.

لقد حاول المشركون أن يؤثروا في معنويات المسلمين، كي لا يطمئنوا إلى إرسال دعاتهم خارج المدينة المنورة، وبذلك يجعلون الدعوة تنحصر في محيط ضيق لا يتسع لآمالها القريبة والبعيدة.

غدر بنو عضل والقارة بمعاونة هذيل بستة من الدعاة في (الرَّجِيع)، وكان بنو عضل والقارة هم الذين طلبوا من الرسول ﷺ إرسال قسم من دعاته إليهم ليعلموهم الإسلام.

وغدر عامر بن الطفيل من بني عامر مع قسم من الأعراب بأربعين داعيًا من دعاة الإسلام في (بئر معونة) بنجد وقضى عليهم إلا رجلًا واحدًا عاد إلى المدينة المنورة يحمل أخبار الشهداء.

فهل أثرت هذه الخسائر في معنويات المسلمين وفي ما هم عليه من صبر وإيمان؟

إن استشهاد الدُّعاة لم يؤثر في معنويات المسلمين؛ لأنهم استمروا على إرسال دعاتهم وخرجوا لأخذ ثارات هؤلاء الدعاة، حتى لا يعود المشركون إلى الغدر بالمسلمين مرة أخرى.

وحاول المنافقون التأثير في معنويات المسلمين بأسلوب آخر، هو أسلوب اختلاق الأخبار الكاذبة، فاختلقوا حديث الإفك بعد غزوة بني المصطلق.

ولم يؤثر هذا الأسلوب أيضًا في معنويات المسلمين؛ فلم يبق أمام المشركين ويهود والمنافقين إلا أن يحشدوا كل قواتهم في صعيد واحد لمحاولة القضاء على المسلمين ماديًّا ومعنويًّا، كما سنرى ذلك في غزوة الخندق». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٩-٢٢١].

١٣ ـ عدم معرفة النبي ﷺ للغيب:

يقول أ/ فريد: «إن حادثتي بئر معونة والرجيع وغيرهما تدل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، كما دلت على ذلك أدلة أخرى منها قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف].

فالله ﷻ وحده عالم الغيب، والرسل والملائكة لا يعلمون عن الغيب إلا ما علمهم ربهم ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن]». [وقفات تربوية مع السيرة النبوية لفريد ص ٢١٩].

١٤ ـ خداع النبي ﷺ دليل بشريته:

يقول الشيخ أبو زهرة: «إن هذه ثاني غدرة برسل النبي ﷺ مبلغين ليغدر بهم، وكانت الأولى في يوم الرجيع، وهذه في بئر معونة، فهل كان خداع النبي ﷺ، وهو قائد الأمة سهلًا بهذا الشكل؟!

فنقول: لم يكن الخداع بعيدًا عن رسول الله ﷺ وهو بشر كسائر البشر، يحتاط وكفاه، وقد فرض الله ـ سبحانه ـ أن المؤمن يُخدع، والكريم المخلص يخدع، والخب اللئيم الذي يفرض الشر لا يسهل خدعه كالكريم الطيب الذي يفرض في الناس الخير، وقد قال ﷻ في ذلك: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال].

ففرض أن النبي ﷺ قد يخدع من الخب الغادر اللئيم.

وأن الرجل المؤمن الحكيم، وقد أوتي محمد ﷺ الحكمة وعلمها الناس، يخدع من ناحية ما يريد وما هيئ له.

وقد أحب النبي ﷺ تبليغ رسالة ربه وهداية العرب إلى الوحدانية، وعبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، وذلك عمله الذي بعثه الله تعالى له، وما كان قتاله إلا دفاعًا، فالقتال لحماية الدعوة من الاعتداء، ولم يكن هدفًا مقصودًا لذاته، فإذا جاء من يسهل له الدعوة استجاب، والحر الأبي لا يفرض الغدر ابتداء، ولكن يفرض الغدر حتمًا إذا كان الأمر من غادر.

وفي الحق أن النبي ﷺ خُدع في المرة الأولى لأنه رسول يريد تبليغ أمر ربه، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[المائدة: ٦٧]، فما كان له ﷺ أن يتردد في إجابة مَنْ دعوه ليعلمهم الإسلام وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

هذا في يوم الرجيع أما يوم بئر معونة، فما كان مخدوعًا بل كان يقظًا، وخشي على من أرسلهم من خشونة أهل نجد وجفوتهم، وأنهم أعراب غلاظ، وما وافق حتى عقد عهدًا بالجوار، وكان مكتوبًا بدليل أنه قدَّمه رسولُ النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل فمزقه بسيفه، وبدليل أن بني عامر رفضوا أن يصرخوا ابن الطفيل إذ استصرخهم حفظًا للجوار.

ولكن الغدر والخيانة جعلاه يستصرخ بغيرهم كما أصرخوه، وكان ما كان من قتل الأطهار العباد الزهاد الذين يحتطبون بالنهار، ويقومون بالليل.

ولقد أدرك النبي ﷺ غدر الغادرين، وربما ظن بقلبه الطاهر الرباني أنه لم يكن حريصًا في إرسالهم، فقنت ثلاثين يومًا استغفارًا لربه، فما كان غير حريص، ولا مخدوعًا في هذا.

وإنه مهما يكن الأمر في هذا، فإنه من المؤكد أن مسارعة عامر بن الطفيل لهذا الغدر، ما كان إلا لإشاعة أن المؤمنين هُزموا في أُحُد، فتكشفت قلوب الغادرين والمدهنين لقريش، الذين ظنوا فيهم القوة والله ولي المؤمنين». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٤٦-٧٤٧].

ويعلق أ/ الشامي على هذا التحليل بقوله: «وذِكْرُ يوم بئر معونة بعد يوم الرجيع في بعض كتب السيرة يوهم أن حادثة القراء في يوم بئر معونة إنما تمت بعد وصول خبر أصحاب الرجيع إلى رسول الله ﷺ، ثم أرسل سبعين من أصحابه، وليس الأمر كذلك، فإرسال الرجال في كلا الحادثتين وقع متتابعًا، ووصول خبرهما كان في وقت واحد، وما كان رسول الله ﷺ ليخدع في المرة الثانية لو بلغه الأمر عن أصحابه الأوائل.

وعلى هذا فلا حاجة لما فعله بعض الكتاب من التبرير لذلك والتماس الأعذار».

[من معين السيرة للشامي ٢٨٤].

١٥ ـ تمايز بعض الأفراد داخل الصف المسلم:

يقول د/ الغضبان: «إنها النماذج الفردية كل فرد بعينه رباه رسول الله ﷺ، لم يخضع أحد منهم لرابطة دم كما رأينا من عروة بن الصلت، أو يأخذ بريق الدنيا والحياة بقلبه، كما رأينا المنذر بن عمرو والحارث بن الصمة، ولم يتراجع أو ينكل واحد من السبعين إذ أفضوا جميعًا شهداء، رفعوا راية الإسلام بدمائهم الذكية، وعرف العرب أنهم يقاتلون قومًا لا عهد لهم بقتالهم، فلا يعرفون الفرار أو يعرفون الجبن أو يعرفون الخوف، بل رأوا ما أذهل قلوبهم، ورأوهم يهتفون حين يشرع الرمح فيهم، وحين تقطر الدماء من أجسادهم يقولون: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، وهؤلاء المقاتلون وهم يرون هذه النماذج، لا شك أن الإيمان يغزو قلوبهم فيقاوموه، ثم يغزوهم فيقاوموه أمام ضغط القرابة، وضغط قيم القبيلة إلى أن يأتي الوقت الذي يهزم هذه القيم، فيستجيبون لداعي الهدى، وينضمون إلى ركب الإيمان».

[التربية القيادية للغضبان ٣/ ٢٧٥].

١٦ ـ استعداد الدعاة دائمًا لتحمل التبعات:

يقول د/ الشرباصي: «إن المجاهد المؤمن الصادق يضع نفسه وحسه «تحت الطلب» لخدمة عقيدته ومبدئه، فهو مستعد دائمًا لحمل التبعات ومواجهة الأزمات، وهو يقذف بروحه في أتون المعركة بلا خوف من سطوة عدو، أو مكر مخادع، أو خيانة لئيم، فالله الكبير موجود، والحق ظاهر واضح، والنهاية بفضل الله مضمونة مأمونة: فإما عزة بنصر، وإما نعيم بشهادة، والله ولي الصابرين.

لقد تعرض أصحاب رسول الله ﷺ لأشد ألوان المكر والغدر والخداع، فما ضعفوا ولا استكانوا، بل استخفوا بالشدائد واستهانوا، وأدوا واجباتهم بقدر طاقتهم، ومضوا إلى ربهم كرامًا عظامًا، مخلفين وراءهم أروع السير وأخلد الذكريات». [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٣١٨].

ويقول أ/ فتح الباب: «ومما يجدر بالذكر ذلك الموقف البطولي الذي سجله بعض الرواة للمنذر بن عمرو ﷺ قائد جماعة المسلمين إذ عرض عليه ابن الطفيل وعصبته أن يتركوه قائلين: إن شئت آمناك، فأبى وقاتلهم حتى قتل.

وفي هذا الشهيد العظيم قال رسول الله ﷺ «**أعنق ليموت**» يعني أنه تقدم على الموت وهو يعرفه، وذلك الموقف الذي روي عن المنذر بن محمد بن عقبة وكان يصحب المسلمين مع عمرو ابن أمية الصخري ـ وكانا قد عهد إليهما بالقيام على مطيهم التي تركوها ترعى حراسة إبلهم ـ شاهدا طيرًا تحوم على موضع الصحراء، فقالوا: والله إن لهذه الطير لشأنًا، وسارا يستطلعان الأمر، فإذا أصحابهم في

دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر لعمرو: ما ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر: ما كنت لأرغب عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتى قتل».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٠٧-١٠٨].

١٧ ـ تأثر أفراد الصف بالقائد القدوة:

يقول د/ أبو فارس: «إن حادثة بئر معونة تبرز الموقف البطولي للقائد والجنود، إن هؤلاء العلماء حفظة القرآن، الذين يتلونه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، حين أحاط بهم الأعراب، وغدروا بهم، وقد شرعوا رماحهم، وامتشقوا سيوفهم ماذا فعلوا؟ إنهم لم يستسلموا للغادرين ولم يترددوا في قتالهم، وظلوا يقاتلونهم حتى آخر جندي منهم.

ولقد ظل قائد المسلمين المنذر بن عمرو ﷺ يقاتل حتى سقط جنوده صرعى أمامه، وعرض عليه الأعراب أن يستسلم لهم، فأبى وأصر على قتالهم واستمر يقاتلهم حتى استشهد، فلما بلغ الرسول ﷺ صنيعه هذا قال ﷺ: «**أعنق للموت**».

إن موقف القائد وجنوده يدل على بطولة نادرة إذ هي معركة غير متكافئة في العدد والعدة والسلاح، وهذا الموقف يعطي درسًا للجبناء المتخاذلين في حروبهم مع أعدائهم، وهم ليسوا قلة في عددهم أو عدتهم كأولئك النفر من الصحابة.

هذا الدرس يتلخص في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]، إما النصر وإما الشهادة:

فَإِمَّا حَيَاةٌ تَسُرُّ الصَّدِيقَ وَإِمَّا مَمَاتٌ يَغِيظُ العِدَا

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٧-٣٨].

١٨ ـ اتساع الصدر في الأمور الخلافية:

يقول د/ أبو فارس: «لقد علم عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد الجلاح بالمجزرة الرهيبة ببئر معونة عن طريق الطير التي كانت تحوم فوق القتلى، وكأن هذه الطير قد جزعت من هذه المأساة، وأرادت أن تنقل غدر الإنسان بأخيه الإنسان، حين يعيش بلا مبدأ نظيف أو عقيدة نظيفة ربانية سمحة.

تشاور المنذر وعمر فنتج عن التشاور رأيان تُرجما إلى موقفين:

الموقف الأول: وصاحبه المنذر بن محمد ﷺ، فقد رأى أن يقاتل حتى ينال شرف الشهادة، أو أسوة بإخوانه وقائدهم المنذر بن عمرو ﷺ.

الموقف الثاني: وصاحبه عمرو بن أمية الضمري ﷺ، فقد رأى أن لا فائدة من القتال وأن يلحق برسول الله ﷺ ويخبره بما حدث لأصحابه ببئر معونة.

وقد التزم كل منها الموقف الذي اختار، فاستشهد المنذر ﷺ، ولحق عمرو بن أمية ﷺ برسول الله ﷺ، ولم تنقل لنا كتب السيرة التي اطلعنا عليها أن الرسول ﷺ أنكر موقفًا واحدًا منهما.

يؤخذ من هذا أنه قد تختلف الاجتهادات، وتُبنى عليها المواقف المختلفة، لكن هذا حدث عند عدم وجود أمير يفصل في النزاع والخلاف، حيث يتبنى رأى الأكثرية، ولو كان هناك أمير لاستمع إلى الآراء وأخذ برأي الأغلبية وألزم الجمع به سواء كان بالقتال أو بغيره، فتأمل».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٨-٣٩].

ويقول ل/ خطاب: «لقد كان قرار عمرو بن أمية الضمري ﷺ بالرجوع إلى النبي ﷺ ليخبره بما حدث في بئر معونة لسرية المسلمين قرارًا حكيمًا وصائبًا، فما كان الرجل جبانًا، بل كان شجاعًا معروفًا بشجاعته، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا تجاه حشود القبائل الغادرة، والمتورطة في قتل سرية المسلمين، وكل ما يمكن أن يحدث هو استشهاده الحتمي في قتال غير متكافئ.

وكان قرار المنذر بن محمد الأنصاري ﷺ في الإصرار على الاستشهاد قرارًا شجاعًا بطوليًّا، فما كان له أن يعود إلى مستقره في المدينة، وهو يرى جثث إخوانه قتلى تملأ ساحة المعركة.

لقد كان قرار عمرو بن أمية الضمري ﷺ قرار العقل، وقرار المنذر بن محمد الأنصاري ﷺ قرار العاطفة، وكان لكلٍّ من القرارين ما يسوِّغه حينذاك، وقد اجتهدا، وللمجتهد أجره على كل حال».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٣٤٨-٢٤٩].

١٩ ـ تكريم الشهداء:

يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يكرم الشهداء بكرامات كثيرة، فهم أحياء وليسوا موتى كبقية الناس، وشهداء بئر معونة أكرمهم الله بكرامة لم تكن لمن قبلهم ولا لمن بعدهم، فقد دعوا الله ﷻ أن يبلغ المسلمين ما حدث لهم من حسن العاقبة، فأنزل الله في ذلك قرآنًا ثم نسخ وهو قوله تعالى: «**بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا**». [البخاري بفتح الباري ٨/ ٣٩٤]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس٣٩].

٢٠ ـ الأمة الإسلامية مستهدفة:

تنطوي كل من حادثتي الرجيع وبئر معونة على دلالة واضحة على مدى ما كانت تفيض به أفئدة المشركين من غل وحقد على المؤمنين، حتى إنهم ارتضوا لأنفسهم أحط مظاهر الخيانة والغدر ابتغاء إطفاء غليل أحقادهم على المسلمين، حيث وجدت الوثنية العربية فرصتها للانتقام في أعقاب هزيمتها في أُحد،

وراحت توجه للمسلمين الضربات الغادرة كلما تمكنت منها، متجاوزة في ذلك أعرافها وقيمها الجاهلية التي درجت عليها مئات السنين. [دراسة في السيرة لخليل ١٧٠، وفقه السيرة للبوطي ١٧٣].

ويقول الشيخ الغزالي: «إن اصطياد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجسًا وقلقًا، إذ إن ذلك المسلك دل على مبلغ طمع المشركين في أهل الإيمان واستهتارهم بأرواحهم وجرأتهم على النيل منهم، دون تخوف أو محاذرة قصاص.

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظًا، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب، بل الذي أحرج مشاعرهم في هذه الحادثة أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غل كامن على الإسلام وأهله، غلٍّ عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء، وأباح لكل غادر أن يلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء».
[فقه السيرة للغزالي ٢٨٧، ٢٨٨-٢٨٩].

ويقول م/ أبو راس: «وهكذا يعيد الشرك الكرة ولكن على أيد مختلفة ليثبتوا ـ لكل من له قلب ـ أنهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، وليؤكدوا أن الدم المسلم عندهم هو أرخص عليهم من أي رخيص، وأهون عليهم من الهوان نفسه.

وهذا الموقف لم يقفه أعراب البادية المتوحشون، لينتهي الغدر مع انتهائهم، ولكن يقفه اليوم المتحضرون المتقدمون، الذين اخترقوا الأجواء وحطوا على القمر وبلغوا من العلوم الظاهرة ما بلغوا، أما سمعتم بالشركة «الطبية» السويسرية التي جربت بعض عقاقيرها على أطفال الأمة الإسلامية التي أصبحت كالأيتام على موائد اللئام، هذه العقاقير التي لا تجرب إلا على الفئران والحيوانات جربوها على أطفال مصر عام ١٩٧٤م، لا تعجبوا إذ أن للفئران وسائر الحيوانات جمعيات تدافع عنهم، أما المسلمون في عهد الذل والضعف والهوان فما هم إلا كقطيع من الغنم يسلمه الراعي إلى قاتليه بعد أن يقبض الثمن!

أو ما سمعتم بالمتعصبين من طائفة السيخ في الهند يجمعون مسلمي إحدى قرى البنجاب في إحدى ساحات القرية ليسكبوا عليهم «الكاز» ليحرقوهم أحياء.

لاتعجبوا.. فلم العجب وقد حُرِّق علماء مسلمون على أيدي زعيم يدَّعي الإسلام في العاصمة مقاديشو تزلفًا إلى الاتحاد السوفياتي بعدما لفظه الغرب!

أو ما سمعتم بالصليبيين في الفلبين يحرقون قرى إسلامية بأكملها ليتلذذوا بصيحات أخواتنا المسلمات هناك.

لا تعجبوا فلقد عملت راجمات الصواريخ بإحدى الدول العربية ما هو أكثر من هذا عندما هدمت عام ١٩٨٢م مدينة بكاملها.

والأمثلة كثيرة لا تُحصى، ولكن شعوبنا الإسلامية من المحيط إلى المحيط لا تعي الدرس لعدم قدرتها على الربط بين الأحداث، ولعدم قدرتها على وعي الدوافع والمنطلقات التي ينطلق منها هؤلاء؛ ولعدم وقوفهم على الطريقة المثلى لردع كلِّ مَنْ تُسول له نفسه في الاعتداء على فرد من أبناء الإمة الإسلامية الممتدة من المحيط إلى المحيط! هذا إن كانت ـ بالأصل ـ تريد الوقوف.

إن على الشعوب الإسلامية ـ على اختلاف ألوانها وألسنتها وقومياتها ـ أن تعي أنها مستهدفة وإنه إن لم يكن اليوم فالغد، وإن لم تكن هذه السنة فالتي تليها، أو التي تليها.

وعلى الشعوب الإسلامية أن تعي أن ملة الكفر ـ على اختلاف سبله ونظرياته وفلسفاته ومنطلقاته ـ لا يرقبون في الأمة الإسلامية أو أحد من أبنائها إلًّا ولا ذمة، وأنهم يبغضونهم لا لشيء إلا لأنهم مسلمون موحدون، وإنهم ـ أي اليهود والنصارى والوثنيين ـ لن يرضوا عن المسلمين ما داموا يعلنون أنهم مسلمون ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: ١٢٠].

وعليهم أن يعلموا أنه حتى غير الملتزمين بالإسلام وبتعاليم الإسلام مستهدفون من قِبل الشرك وأهله، فالبغي والطغيان لن يسأل وهو يُقدم على قتل المسلمين إن كان ملتزمًا أو غير ملتزم، وقد وصل البغي الصليبي في لبنان أن أفراد الكتائب كانوا يوقفون السيارات العابرة لبيروت الشرقية أو في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها ويطلبون من الركاب الكشف عن عوراتهم فمن وجدوه مختونًا قتلوه في الحال!». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٢٢-٢٢٣].

٢١ ـ حرمة دم المعاهد المسالم:

يقول الشيخ عرجون: «تأسف النبي ﷺ أن عمرو بن أمية ﷺ أخبر النبي ﷺ أنه قتل رجلين من بني عامر في طريق عودته وسلبهما ما كان معهما من متاع، وكان هذان الرجلان معهما عهد من رسول ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية ﷺ فقتلهما بعد أن استنسبهما فعرف أنهما من بني عامر، قوم عدو الله الفاجر عامر بن الطفيل، وهو يرى أنه قد أصاب بقتلهما ثأرًا من بني عامر، فأنكر عليه النبي ﷺ ذلك، وقال له: **«بئس ما صنعت، قد كان لهما مني جوار وأمان لأدينهما»**. [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٥٧-٥٨].

٢٢ ـ مقام المسلم في دار الكفر أو الحرب:

يقول د/ البوطي: «كنا قد قلنا في القسم الأول من هذا الكتاب أنه لا يجوز للمسلم المقام في دار الكفر أو الحرب إن لم يمكنه إظهار دينه، ويسن له ذلك إن أمكنه إظهار دينه، والذي يدل عليه هذا المشهد من سيرته ﷺ أنه يستثنى من ذلك ما إذا كان المقام للمسلم في دار الكفر ابتغاء القيام بواجب الدعوة

الإسلامية هناك، فذلك من أنواع الجهاد الذي تتعلق مسؤوليته بالمسلمين كلهم على أساس فرض الكفاية الذي إن قام به البعض قيامًا تامًّا سقطت المسؤولية عن الباقين، وإلا اشتركوا كلهم في المأثم».
[فقه السيرة للبوطي ١٩٩-٢٠٠].

٢٣ ـ طريق الابتلاء والصفقة الرابحة:

سبق نصه تحت عنوان: (تمحيص المؤمنين) في الدروس المستفادة من سرية الرجيع.

٢٤ ـ مسؤولية المسلمين جميعًا عن الدعوة إلى الإسلام:

يقول د/ البوطي: «يدل كل من حادثة الرجيع وبئر معونة على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة إلى الإسلام وتبصير الناس بحقيقته وأحكامه، فليس أمر الدعوة موكولًا إلى الأنبياء والرسل وحدهم، أو إلى خلفائهم العلماء دون غيرهم.

وإنك لتستشعر مدى أهمية القيام بواجب الدعوة، من إرسال النبي ﷺ أولئك القراء الذين بلغت عدتهم سبعين شابًّا من خيرة صحابته ﷺ، ولما يمض أمد بعيد على مقتل أولئك النفر الستة الذين كان قد بعثهم في ذلك السبيل نفسه... ولقد استشعر الخوف عليهم، وذكر ذلك لعامر بن مالك عندما اقترح عليه إرسال وفد لدعوة الناس إلى الدين، ولكنه كان يرى أن القيام بأعباء التبليغ أهم من كل شيء، ولئن لم يمكن تحمل مسؤولية الدعوة والنهوض بها إلا بمثل هذه المغامرة وقبول ما قد ينتج عنها، فلتكن المغامرة، وليكن ما أراد الله تعالى في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته». [فقه السيرة للبوطي ١٩٩].

ويقول الشيخ القرني: «إن هذه الحوادث تدلل على حرص النبي ﷺ على تبليغ رسالة ربه وانتهاز الفرص الممكنة لذلك، ولقد نظر النبي ﷺ إلى ظواهر القوم وترك سرائرهم إلى الله، والدعوة لابد أن تبلغ على الرغم مما يعترضها من صعوبات وما تحتاج إليه من تضحيات، ولئن استراب النبي ﷺ بمن جاءه يطلب الهداية فلم يرسل معهم من يعلمهم بناء على ما ظنه فيهم من سوء النية ليوشكن ذلك أن يصبح تشريعًا يعمل به الناس بعده ويترتب على ذلك شر مستطير وقد يفوت به خير كثير، والنبي ﷺ هو صاحب هذه الكلمة المستنيرة: «**أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر**» [(١)]، ومع ذلك لم يفته أن يستوثق لأصحابه، ولكن هناك ما هو أعظم من الاستيثاق وهو القضاء والقدر، فهما يغلبان كل تدبير واحتياط، وقد احتاط النبي ﷺ جهده، ولكن الله أراد لهؤلاء الشهادة، وأراد لهم أن يضربوا المثل العليا في

(١) قال الإمام السخاوي: «حديث: أمرت أن أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، اشتهر بين الأصوليين والفقهاء، ولا وجود له في كتب الحديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وجزم العراقي بأنه لا أصل له، وكذا أنكره المزي وغيره». المقاصد الحسنة للسخاوي ١/ ٥١ حرف الهمزة.

التضحية والفداء، وأن يكونوا علامات بارزة على الطريق يضيؤون للناس طريق الجهاد لمن يجيء بعدهم، وليبينوا للناس أن كلمة الإسلام يجب على المسلمين أن يحملوها عبر الآفاق مهما كلفهم ذلك من ثمن.

إن على المسلمين أن ينظروا إلى تاريخهم المشرق فيدركوا كم بذل الأوائل في سبيل نشر الدعوة حتى وصلت إلينا فأخذناها سهلة ميسورة دون أن نكلف أنفسنا عناء المحافظة عليها، إنها ثروة رائعة صيغت بالدماء والتضحيات والعرق والسهر والدموع، ونحن الآن نبددها دون وازع من ضمير أو دين، ودون خجل أو حياء». [هدي السيرة للقرني ١٥٩].

٢٥ ـ مسؤولية الشباب في حمل رسالة الإسلام:

يقول ل/ خطاب: «لقد كان أكثر أفراد هذه السرية شَبَبَة (الشبان، واحدهم شاب. ينظر: النهاية ٢/ ٢٠١) يسمُّون القُرَّاء، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة، فتدارسوا وصلُّوا، حتى إذا جاء الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب، فجاؤوا به إلى حُجَر رسول الله ﷺ، وكان أهلوهم يظنُّون أنهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهليهم، فبعثهم رسول الله ﷺ في تلك السرية، فخرجوا فأُصيبوا في بئر معونة.

والقراء هم علماء الأمة، الذين نذروا أنفسهم للعلم والعمل به، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعمل الخير، وكان على رأسهم أعلمهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ: المنذر بن عمرو ﷺ.

وقد قُتِل أصحاب المنذر، فعرض عليه المشركون أن يؤمِّنوه، ولكنَّه قاتلهم حتى قُتل، فذلك قول رسول الله ﷺ فيه: «**أعنَق ليموت**»، فلقب: «**المُعْنِق ليموت**».

لقد كانت سرية بئر معونة ملحمة من ملاحم المجاهدين في الله الذين يعتبرون الشهادة أمنية من أغلى أمانيهم، فحين طَعن المشرك جبارُ بن سُلمى حَرامَ بن ملحان ﷺ سمعه القاتل يقول: «**فُزْتُ والله**» فأعلن حينذاك القاتل إسلامه؛ لأنه رأى تضحية لا يمكن أن تكون إلا لله وحدَه».

[قادة النبي ﷺ لخطاب ٢٢٧-٢٢٨].

ويقول د/ عمارة: «من حق الشباب اليوم أن يمدوا أيديهم إلى ما في الحياة من صور المتاع الحسن، ولا تثريب عليهم إذا هم تقلبوا في البلاد سياحة تجدد نشاطهم، تجديدًا يعينهم على أداء دورهم في دنياهم.

فالطبيعة من حولنا مأدبة حافلة بأطايب الطعام، ولا بأس على العين أن ترى، ولا على القلب أن يخفق، ولا على الأعصاب أن تحس، في غير معصية الله تعالى، ذلك شيء مهم في حياة الشباب، وأهم منه أن تعود بهم ذاكرتهم إلى تاريخهم المجيد عودة يعمق بها اعتزازهم بأنفسهم، وتفتح أبصارهم على ما في تراثهم من مواقف مشرفة، قام بها شباب أمثالهم، فكانوا شاهد صدق على ما في شبابنا من طاقة تمكنه من

الصعود إلى أعلى، فلا تقف به همته عند الخضرة، والماء، لكنها تجعل منه سلاحًا من أسلحة القدر، يُعلِّم الناس فن الحياة.

وفيما رأيناه من شباب بئر معونة واحد من هذه المواقف.

فانظر ماذا ترى؟

إنهم نموذج من شباب هذه الأمة، قد استعلى بإيمانه فوق لهو الحياة ولعبها، فكان سهر الليالي في مدارسة العلم، والتعلق بالمسجد ذكرًا وصلاة متعته وزاده، ولئن كانت الخضرة والماء بعض مآربه، فإنه ولكي تبقى الحياة مخضرة لابد من تضحية ودماء تجري؛ لتظل الأرض مخضرة، تنبت من كل زوج بهيج.

لابد من معاني الكفاح، والإيثار، والجد والوحدة، حتى إذا دعا إلى البذل داع، كان هناك من هذه المعاني رصيد تنطلق به القافلة إلى أمام، وإلا فلو جلس كل إنسان مستغرقًا في متعته، لما وجدت الدنيا يدًا تستنبت الخضرة، ولا آلة تجري الماء، فماذا في المشهد من معان تستلفت النظر.

كانوا سبعين شابًّا، أعني في مرحلة الاعتزاز بالرأي، وتحكيم المزاج، لكنهم كانوا (رجالًا) توحدت كلمتهم حول منهج معين، وطريق مرسوم، بلا خوف، إن مبادئ الإسلام واضحة في أذهانهم وضوحًا يؤدي بهم إلى الالتفاف حولها، والعمل من أجلها، نظرية سليمة قابلة للتطبيق في دنيا الواقع على نحو تتحول به الفكر إلى حياة نابضة بالحركة، فعلام الاختلاف إذن وقد ذهبت دواعيه؟

ليس هنا مزاج شخصي يتحكم، بل الكل جماعة واحدة، إلى هدف واحدة، ولعل وحدة الكلمة أقرب إلى تحرير النفس مما لو كان هناك فكر سديد لا يجد الجماعة التي تتحمل مسؤوليته أسوة بهؤلاء السبعين من الرجال.

لقد انتصرت إسرائيل علينا، وربما خذل المسلمون أنفسهم حين لم يرتفعوا إلى مستوى إيمانهم بالله ﷻ.

أما هؤلاء الشباب فكانوا بمسلكهم الرائع صورة عملية تتجسد بها المفاهيم، وتستقر بها المبادئ.

فكانوا في السلم طُلاب علم يقترب به الإنسان من خالقه سبحانه.

وفي الحرب صاروا جندًا يدوخ الله بهم الباطل، وعلى أساس من العلم والعمل قامت حياتهم:

علم يتدارسونه فيربطهم بالحياة، وتصح به صلتهم بالله تعالى، وبالمجتمع الذي يعيشون فيه، فيردون إليه الجميل في صورة ذلك الماء العذب، وهذا الحطب الجزل، يقدمونه إلى رسول الله ﷺ، أي أن تحصيل العلم لم يلههم عن أداء واجبهم هكذا تطوعًا، ولو كان ذلك الواجب قربة ماء يحملونها، أو حزمة حطب يجلبونها.

ولم تكن منهم أنفة من عمل كهذا، وربما تعافه بعض النفوس المترفة.

وإنها لزكاة ترمز إلى شرف العمل مهما كان نوعه، وهو نموذج مفقود في صفوف شبابنا الذين يجيدون فقط فن النقد والتجريح، بينما هم يأكلون مما عملت أيدي غيرهم.

إنهم فقط ينقدون، وما أسهل النقد، ثم هم لا يعملون، فما أصعب العمل.

إن العلم في الإسلام ـ كما يفهم من موقف هؤلاء الشباب ـ يمهد السبيل إلى تربية النفس التي تنشط به إلى عمل الخير، ويتم ذلك كله في سرية تامة، فلا يعلم أهلوهم، ولا أصحابهم في المسجد بما يفعلون، فليس هناك شعارات براقة تزحم الأفق، بلا عمل، بيد أنه العمل في صمت ابتغاء رضوان الله تعالى طبق خط مرسوم، ووقت مقسوم بين العبادة والعمل.

فإذا علمنا أن هذا الشباب من (الأنصار) من أهل المدينة وممن يساكنون اليهود، أدركنا في نفس الوقت بُعدًا آخر من أبعاد هذه الوثبة المباركة، لقد تحالف بنو قينقاع مع الأوس، وتحالف بنو قريظة وبنو النضير مع الخزرج، فكانت الأوس تقترض من بني قينقاع، والخزرج تقترض من حلفائها، وكان لهذا الحصار الاقتصادي المضروب آثاره فيما زينه اليهود من رزائيل، وما بثوه من مكر ودهاء عكروا به صفو الطبيعة العربية، فإذا نجح هذا الشباب في مدارسة العلم، ثم في تتويجه بالعمل، وإذا وصلوا بالعمل إلى كسر هذا الحصار المضروب، ورد الكيد اليهودي إلى نحور أعدائهم، ثم الاحتفاظ بالولاء للدين ومحبة رسول الله ﷺ، إذا استطاع هذا الشباب أن يثبت وجوده في دوامة المكر اليهودي، فإن ذلك دليل على ما في شبابنا من إمكانات ما زالت صالحة لاستئناف الدور في عصرنا الحاضر، وعودًا على بدء نبني كما كانت أوائلنا تبني.

لقد كانوا ـ بمسلكهم العملي ـ بنجوة من تأثير اليهود المتربصين بهم باعتبارهم قوة الغد، وقادة المستقبل، وكان تقلبهم بين المسجد والبيت دليلًا على روحهم الجادة التي لا يتسع وقتها للجلوس في ساحات اللهو، ومواطن العبث، وهو نفسه المسلك الذي رشحهم للقيام بدعوة الناس إلى الإسلام.

وفي لحظة غدر استشهدوا، فحزن عليهم الرسول ﷺ وفاء لهم؛ وتقديرًا لدورهم، ولموقفهم الصامد في لحظة الموت، لقد كانوا يزرعون الحياة، بينما الموت يحصدهم حصدًا، لقد دعوا إلى الله بدمائهم وأرواحهم يبذلونها، قبل أن يدعوا إليه بكلامهم وأناشيدهم.

وهذا هو جبار بن المسلمي وكان واحدًا ممن قتلوا هذا الشباب ذَكَرَ أَنَّهُ لـمَّا طَعَنَهُ (أي حرام بن ملحان ﷺ) قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **فُزْتُ وَاللهِ**، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا قَوْلُهُ: فُزْتُ؟ قَالَ: فَأَتَيْتُ الضَّحَّاكَ بْنَ سُفْيَانَ الكِلابِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ وَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِهِ: فُزْتُ، فَقَالَ: الجَنَّةَ.

قَالَ: وَعَرَضَ عَلَيَّ الإِسْلامَ، قَالَ: فَأَسْلَمْتُ، وَدَعَانِي إِلَى الإِسْلامِ مَا رَأَيْتُ مِنْ مَقْتَلِ عَامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ مِنْ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ عُلُوًّا. [المغازي للواقدي ١/ ٣٤٩].

إن معنى جديدًا للنجاح يبرز الآن، وليس هو الحصول على رتبة أو درجة علمية، ولكنه النجاح الساحق في ساحة الاستشهاد حين ترخص الروح في سبيل الله. [تأملات في السيرة النبوية لعمارة ١٩٥-١٩٨].

٢٦ ـ الحرص على الفوز بالشهادة في سبيل الله:

يقول د/ الصلابي: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**» [البخاري في المغازي (٤٠٩١)] صاحب الكلمة حرام بن ملحان ﷺ، فعندما اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره، وأصبح يتلقى الدم بيديه، ويمسح به وجهه ورأسه ويقول: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**»، إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجرًا يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لا تصفر وجوههم فزعًا من الموت، وإنما يعلوها البِشر والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة. [ينظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٠].

وهذا المنظر البديع الرائع الذي لا يتصوره العقل البشري المجرد عن الإيمان جعل جبار بن المسلمي وهو الذي طعن حرام بن ملحان ﷺ يتساءل عن قول حرام: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، وهذا جبار يحدثنا بنفسه فيقول: إن مما دعاني إلى الإسلام، أني طعنت رجلًا منهم يومئذ برمح بين كتفيه فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لعمر الله، فكان سببًا لإسلامه. [ينظر: السيرة النبوية للندوي ص٢٤٣، ٢٤٤، وابن هشام ٣/ ٢٠٧].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونا للتساؤل: هل يتعرض الشهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشافية من رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «**مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ**». [الترمذي (١٦٦٨)، وقال: هذا حديث صحيح غريب، والنسائي (٣١٦١)، وابن ماجه (٢٨٠٢). وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح].

فللشهيد منزلة خاصة عند الله، فجزاء الثمن الباهظ الذي يدفعه وهو روحه رخيصة في سبيل الله ﷻ لم يبخسه أعدل العادلين حقه فكافأه مكافأة بست جوائز كل واحدة منها تعدل الدنيا بمن فيها، فَعَنْ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنْ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، [وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ]، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنْ الحُورِ**

العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ». [الترمذي (١٦٦٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب). وقال الشيخ الألباني: صحيح، وابن ماجه (٢٧٩٩). وينظر: مبحث (الشهيد وأحكامه) من المرحلة الثالثة من غزوة أحد].

هذا بالإضافة إلى الوسام المميز المشرف الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ جَرِيحٌ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ جُرْحُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَدْمِي، لَوْنُهُ لَوْنُ الدَّمِ، وَرِيحُهُ رِيحُ المِسْكِ...**». [مجمع الزوائد ٦/ ١٧٢، كتاب المغازي والسير (١٠١٠٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح].

كما أن حياة الشهداء لا تنتهي بمجرد موتهم، بل هم أحياء يرزقون ويتنعمون عند ربهم.

[ينظر: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة النبوية لبريك ص٢٤٥].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

[السيرة للصلابي ٢/ ١٨٩-١٩٠].

٢٧ ـ الداعية الصادق يجعل الله موته دعوة في سبيله:

يقول د/ الشرباصي: «لقد كانت شهادة المجاهد البطل حَرَام بنِ مِلحَانَ ﷺ سببًا في إسلام قاتله، فقد طعنه رجل يُسمى «جبار بن سلمى الكلابي»، فقال حَرَامُ بن مِلحَانَ ﷺ حينما أصابته الضربة القاتلة: **اللهُ أكبرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**.

واستمع «جبار» القاتل إلى العبارة التي رددها حرام الشهيد ﷺ، فلم يفهم معناها.

لماذا قال: الله أكبر؟

وأين الفوز الذي فاز به؟ ألم يذق الموت ويترك الحياة إلى التراب؟

وذهب الرجل يسأل، فقيل له: إن حرامًا يقصد بقوله هذا أن الله قد أكرمه حينما رزقه نعمة الشهادة في سبيله، وأنه سيفوز بنعيم الجنة في الدار الآخرة.

وانبهر «جبار» من هذا اليقين المسيطر، وهذا الإيمان السابغ، وأخذ يفكر ويفكر، وكأن حرامًا ﷺ يطل عليه دائمًا من عالم الخلد، ويشير إليه بأصابع نورانية، ويقول له بصوت فيه روعة السماء وهيبة الآخرة: **يا جبار، أقلع عن كفرك وعنادك إن الباب مفتوح أمامك، فادخل دين الله ـ تبارك وتعالى ـ تكن من الفائزين**.

وشرح الله صدر «جبار» للإسلام، فاهتدى وأعلن إسلامه، وقال فيما قال عن سبب هذا الإسلام: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلًا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: **الله أكبر، فزت ورب الكعبة**، فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟! حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: إنه يعني الشهادة، فانشرح صدري للإسلام، وقلت: صدق الله، فاز والله!

وهكذا كان استشهاد حرام ﷺ ـ وهو في سن الأربعين ـ خيرًا له ولغيره، ففاز بالنعيم الأبدي عند الله جزاء شهادته، وكان سببًا في اهتداء أحد الكافرين إلى صراط الله ﷻ، «**فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**». [أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير: ١٥١١]. [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٥٥٥-٥٥٦].

ويقول د/ أبو فارس: «وهذا درس للدعاة يجدر بهم أن يدرسوه ويستفيدوا منه ويطبقوه، أن عليهم أن يغذوا دعوتهم بدمائهم، وليعلموا أن كلماتهم تكون ألفاظًا جامدة لا حياة فيها ولا روح إلا إذا غذوها بالإخلاص والتضحية والفداء والقدوة الحسنة، إن عليهم أن يكونوا صادقين مع الله فيصدقهم الناس، ويؤمن الناس بدعوتهم، ويزداد أتباعهم إيمانًا بصدقهم وصدق ما يدعون إليه».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس٣٩].

٢٨ ـ حب الشهادة:

يقول د/ أبو فارس: «إن المسلم لا يهاب الموت، بل يستعذب الردى إن كان في سبيل الله، ذلك لأنه عقد الصفقة مع الله على أن يبذل ماله ونفسه لقاء ما عند الله من النعيم المقيم.

وها هو ذا ابن ملحان ﷺ في بئر معونة لما طعن بالرمح فخرج من شقه الآخر أخذ الدم يلطخ به وجهه ويقول: **فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**، يكرر ذلك مرارًا، ويقف نفس الموقف في نفس الحادثة عامر بن فهيرة ﷺ حينما طعن.

إن على الدعاة إلى الله في كل زمان ومكين أن يربوا أنفسهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم وأقرباءهم على حب الجهاد والاستشهاد، ويتقدمون الناس في الملمات، فيقتدي بهم الناس، ويعبؤون أنفسهم ويربونها على الجهاد والبذل والتضحية». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٣٧].

٢٩ ـ وقوع الكرامات لعباد الله الصالحين:

يقول أ/ المصري: «وفي القصة كرامة ظاهرة لعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ﷺ والكرامة هي الخارقة الرحمانية التي يسوقها الله ﷻ على يد ولي من أوليائه، ومَنْ أولى بذلك من الصحابة الكرام الذين كانت آيات صدقهم ظاهرة وعلامات إيمانهم وجهادهم باهرة.

وهكذا فالجزاء من جنس العمل، فلقد كان عامر ﷺ يرفع الطعام إلى النبي ﷺ فرُفع إلى السماء، ولقد كان عامر ﷺ يدفن سر النبي ﷺ ويُخفي آثاره فتولت الملائكة دفنه، والجزاء من جنس العمل.

وهكذا يكون العمل لدين الله.

فمهما كان العمل صغيرًا أو كبيرًا فما عليك إلا أن تجتهد لخدمة هذا الدين، فهذا عامر ﷺ كان يذهب بالغنم إلى الحبيب ﷺ وأبي بكر ﷺ ليشربا اللبن، ومع ذلك لم يقل: إن هذا العمل صغير أو ضئيل؛ لأنه

يعلم، بل يوقن أن الجدار العظيم لهذا الدين يحتاج إلى كل السواعد، فهذا يأتي بالماء وذلك يحمل اللبنة على كتفه، وآخر يبني ويشيد، وبذلك تتكامل سواعد الأمة.

وعلى قدر النية والإخلاص يكون الأجر من الله والنجاح في القيام بهذا العمل.

ومن هنا فعلى كل مسلم أن يقدم من خلال عمله ومكانته كل ما يستطيع من خلاله أن يبني به لبنة في جدار الإسلام.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا عَلَيْكُمْ أَلَا تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ، فَإِنَّ العَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ البُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**». [صحيح: (أحمد والترمذي والحاكم) عن أنس ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير للألباني رقم ٣٠٥]. [أصحاب الرسول ﷺ للمصري ٢/ ٣٨٧- ٣٨٨].

٣٠ ـ وقفات البطولة الفدائية:

يقول أ/ فتح الباب: «إن وقفات البطولة الفدائية التي تجلت يوم بئر معونة لآيات وشواهد خالدة على قوة إيمان جنود النبي ﷺ طليعة علماء الإسلام، وثقتهم بالله ورسوله والمؤمنين، وصلابة إرادتهم في أداء الرسالة أو الموت دونها، تلك القيم الروحية الرفيعة التي مثلها الإسلام في نفوسهم فجرت فيها مجرى الدماء، ولا غرو أن تصدر هذه الآيات عنهم، فهم أصحاب العلم الأعظم في تاريخ البشرية، وهم آباء الطلائع الإسلامية المجاهدة التي نشرت في العالم عقيدة الطهارة والإيمان والتضحية».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ١٠٩-١١٠].

إن هؤلاء السابقين المستضعفين في الأرض لم يمنعهم فقرهم ولا قلتهم أن يجاهدوا ويقودوا، فينتصروا ويسودوا، وإن هؤلاء الأوائل قد ضربوا الأمثلة للمظلومين أو المهضومين؛ كي يتجمعوا ويجاهدوا فيستردوا المسلوب، ويستعيدوا المغصوب: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[يوسف]. [موسوعة الفداء في الإسلام للشرباصي ١/ ٥٥٧].

٣١ ـ الوفاء بالعهد:

وقع عمرو بن أمية الضمري ﷺ أسيرًا في بئر معونة، ولما علم عامر بن الطفيل أنه من مضر أطلقه، وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فلما خرج عمرو ﷺ قاصدًا المدينة نزل في طريقه في ظل والتقى برجلين من بني عامر، وكان معهم عقد من رسول الله ﷺ وجوار، لم يعلم به عمرو بن أمية ﷺ، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما، حتى ناما، ثم عدا عليهما

فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن أمية ﷺ على رسول الله، فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: «**لقد قتلت قتيلين لأدينَّهما**».

وهذا موقف رفيع، فقد ودى ﷺ ذينك الرجلين العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ﷺ لكونهما يحملان عقدًا منه ﷺ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

قد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية ﷺ جزءًا من الانتقام الذي ينبغي أن يواجِه به المجرمين المعتدين، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين من قومهم؟

إن التوجيهات الإسلامية الرفيعة دفعت بالمسلمين ونبيهم ﷺ إلى الرقي الأخلاقي الذي لا نظير له في دنيا الناس. [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٠، والسيرة النبوية للصلابي ٢/ ١٩٠-١٩١**].

٣٢ ـ مشروعية دية قتل الخطأ:

يقول د/ أبو فارس: «وأخذ هذا من قول الرسول ﷺ لعمرو بن أمية ﷺ حينما قتل رجلين من بني عامر ظانًّا أنهما كافران: لأدينهما، أي لأدفع ديتهما.

وكذلك أخذ من دفع النبي ﷺ دية هشام بن صبابة الذي قُتل خطأ لأخيه مقيس بن صبابة في غزوة بني المصطلق كما سيأتي». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٤٦**].

٣٣ ـ معايير النصر والهزيمة:

يقول د/ الحميدي: «أحداث هذه السرية والسرية التي قبلها ونتائجهما تختلف عن أحداث ونتائج الغزوات والسرايا السابقة، فقد ألفنا في كل الغزوات والسرايا أن نرى انتصارات المسلمين الظاهرة مع ما يصيبهم من قتل أو جراح، ولكننا في هاتين السريتين رأينا استئصالًا كاملًا للمسلمين.

والحقيقة أن معايير الانتصار والانهزام لا تخضع لحجم الخسائر المادية التي من ضمنها وقوع الضحايا، وإنما تخضع لمدى الثبات على المبادئ التي قامت الحروب من أجلها أو التراجع في هذا الأمر، ومن ذلك معرفة مدى الحماس في تمثيل هذه المبادئ أو الفتور في تمثيلها، وشدة التلاحم بين القائد وجنوده أو ضعف ذلك، ومدى التماسك بين أفراد الجماعة قوة أو ضعفًا، إضافة إلى مقدار التضحية بالنفس والمال من أجل خدمة المبادئ.

وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين في العهد النبوي نجد أن الصحابة ﷺ كانوا في ثبات دائم على المبادئ السامية التي من أجلها قطعوا الوشائج مع الأقارب والأصدقاء والحلفاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، ونجد أن الانتصار المادي لا يبطرهم ولا يطغيهم، وأن الإصابات المادية لا تضعفهم ولا تحطم معنوياتهم، وأن حماسهم في الدفاع عن الإسلام ثابت على قوته، وأن طاعتهم لقائدهم ﷺ تعتبر مضرب الأمثال،

حتى اعترف بذلك الأعداء أنفسهم، وأن سلوكهم الاجتماعي في قمة التفوق الأخلاقي حيث يُؤثر بعضهم بعضًا بأمور الحياة الدنيا، وأن أسمى أمانيهم أن ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى.

وهذا يعني أنهم في انتصار دائم وإن واجهوا الخسائر المادية في بعض لقاءاتهم مع أعدائهم.

نعم، لو أن أفراد هاتين السريتين ألقَوا بأنفسهم لأعدائهم وتخلوا عن دينهم الذي من أجله خرجوا لكان ذلك هزيمة واضحة لدولة الإسلام، وانتكاسة كبرى للدعوة الإسلامية، ولكن أنَّى يكون ذلك وهم يتغنون بالشهادة ويقول الواحد منهم إذا قُتل: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**».

إن أعظم انتصار لدعوة الإسلام أن يجود أفرادها بدمائهم الزكية من أجلها.

إن الإسلام دين عظيم، ولا يُفدى العظيم إلا بالعظيم، ولا أعظم من أن يجود الإنسان بدمه فداء لدينه.

فلذلك كان استشهاد هؤلاء العظماء نصرًا عظيمًا للإسلام.

إن بعض النفوس تظل في شك من مصداقية هذه الدعوة ومدى ثباتها أمام الأعاصير العاتية، حتى ترى قَسَمات الفرح بادية على وجوه أفرادها وهم يواجهون الموت في سبيلها.

وإن المشهد العالي مثَّله حرام بن ملحان ﷺ وقد اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره وأصبح يتلقى الدم بيديه ويمسح وجهه ورأسه، ويقول: «**فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**».

إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجرًا يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لا تَصْفَرُّ وجوههم فزعًا من الموت، وإنما يعلوها البِشْرُ والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة، ولقد كان لبعض هذه المشاهد أثر في إسلام بعض مرتكبي هذه الجريمة فيما بعد، كما جاء في أخبار هذه السرية».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٤٨-٥٠].

٣٤ ـ أهمية الإعلام الإسلامي في المعركة:

يقول د/ الصلابي: «كان حسان ﷺ من رجالات المؤسسة الإعلامية الإسلامية، فكان يشن الحرب النفسية على الأعداء، وكان بجانبه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ﷺ، فلم يتركوا حدثًا من أحداث السيرة إلا قالوا فيه شعرًا، وكل قصيدة للكافرين يردون عليها بقصائد، وقد علمنا ما أحدثه شعر حسان ﷺ في طرد كعب بن الأشرف اليهودي، وكان ﷺ يتعهد شعراء الدولة الإسلامية ويشجعهم على خوض هذا الباب من الجهاد، فعلى المسلمين المعاصرين قادة وزعماء وعلماء وفقهاء وجماعات أن يرعوا شعراءهم ويشجعوهم لخوض هذا الجهاد العظيم. [ينظر: الأساس في السنة– السيرة النبوية لحوى ٢/ ٦٥٦].

ولما بلغ حسان ﷺ خبر أصحاب بئر معونة نظم أبياتًا تناقلتها الركبان يحث فيها ربيعة بن عامر ملاعب الأسنة ويحرضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء، فلما بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشعر،

وكان الشعر عندهم أوجع من رشق النبل، وقطع السيوف للرقاب، وطعن النحور بالرماح، قام ربيعة بأخذ ثأر أبيه فضرب عامر بن الطفيل ضربة أشواه بها ـ أي لم تصب منه مقتلًا ـ فوثب عليه قومه، وقالوا لعامر: اقتص، فقال: قد عفوت، وإن عشت فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ.

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ١٩١-١٩٢].

٣٥ ـ مشروعية القنوت جهرًا في الصلوات الخمس عند النوازل[(١)]:

يقول د/ العيساوي: «دل على ما ورد في سرية بئر معونة على مشروعية القنوت[(٢)] في الصلوات الخمس عند النوازل، حيث قنت رسول الله ﷺ شهرًا يدعو على الذين قتلوا القراء بعد الركوع.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ ثَلَاثِينَ صَبَاحًا، يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَلِحْيَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: أَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قُرْآنًا قَرَأْنَاهُ حَتَّى نُسِخَ بَعْدُ: ﴿ أَنْ بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ ﴾.

[البخاري في المغازي (٤٠٩٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٩٧) واللفظ له].

وفي رواية: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ ثَلَاثِينَ غَدَاةً، عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: أُنْزِلَ فِي الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قُرْآنٌ قَرَأْنَاهُ ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ: ﴿بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ﴾. **[البخاري في الجهاد (٢٨١٤)].**

وقد ورد في المغني: «فإن نزلت بالمسلمين نازلة فللإمام أن يقنت في صلاة الصبح» نص عليه أحمد.

[المغني لابن قدامة ١/ ٤٤٨].

---

(١) فصَّل الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق ﷺ أقوال العلماء في القنوت وأحكامه في رسالة بعنوان: القنوت بين الشرعة والبدعة ـ هدية مجلة الأزهر ١٤٠٨هـ ـ ٤٨ ص، وقد أعيد نشرها في المجلد الثالث من مجموعة فتاواه ص ٦٧-١٠٨.

(٢) **القنوت**: لفظ مشترك بين الطاعة، والقيام، والخشوع، والسكوت، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾[الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[الأحزاب: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[البقرة].

وقال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**». أخرجه مسلم في صلاة الليل. ينظر: دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٥٠، حاشية رقم ٢٠.

واستدل بالحديث الذي ذكرناه من أن النبي ﷺ قنت شهرًا يدعو على حي من أحياء العرب ثم تركه.

وقد ترجم له الشوكاني في نيل الأوطار: «باب: القنوت في المكتوبة عند النوازل وتركه في غيرها».

[نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٣٩٣].

وقال: «والحق ما ذهب إليه من قال إن القنوت مختص بالنوازل، وأنه ينبغي عند نزول النازلة أن لا تخص به صلاة دون صلاة». **[نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٣٩٦].**

وقال: «إنما قنت عند النوازل للدعاء لقوم وللدعاء على آخرين ثم تركه لما قدم من دعا لهم من الأسر، وأسلم من دعا عليهم، وجاؤوا تائبين، وكان قنوته لعارض، فلما زال ترك القنوت».

[نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٣٩٦].

والقنوت في النوازل فيه ثلاثة أقوال:

الأول: إن نزلت نازلة كعدو، وقحط، قنتوا في جميع الفرائض، وإلا فلا، وهو رأي الجمهور، وهو الصحيح. **[البخاري بشرح الكرماني ٥/ ١٥٣].**

الثاني: يقنتون في الحالين، وهو مذهب سعيد بن المسيب. **[فقه سعيد بن المسيب ـ د/ هاشم جميل ١/ ٢٥٢].**

الثالث: لا يقنتون فيهما، وهو رأي جماعة من أهل العلم. **[البخاري بشرح الكرماني ٥/ ١٥٣].**

وأما القنوت في صلاة الفجر، فقد اختلف العلماء في مشروعيته في الركعة الثانية في صلاة الفجر على آراء:

الأول: أنه مستحب سواء نزلت بالمسلمين نازلة أم لا. نقله العيني وغيره. **[عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ٧/ ٢٣، ونصب الراية للزيلعي ٢/ ١٣٣، وتحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري ١/ ٣١٠، والروض النضير شرح مجموعة الفقه الكبير للصنعاني ٢/ ١٣٣، وفقه سعيد بن المسيب ـ د/ هاشم جميل ١/ ٢٥٠].**

وهو رواية عن الخلفاء الأربعة وابن عباس، والثوري، وإليه ذهب مالك، والشافعي.

[عمدة القاري للعيني ٧/ ٢٣، ونصب الراية للزيلعي ٢/ ١٣٣، وتحفة الأحوذي ١/ ٣١٠].

والحجة لهم ما روي عن الربيع بن أنس، قال: إن النبي ﷺ قنت شهرًا يدعو على قاتلي أصحابه ببئر معونة ثم تركه، فأما في الصبح فلم يزل يقنت حتى مات. رواه الدارقطني والبيهقي.

وفي رواية لهما عن الربيع، قال: كنت جالسًا عند أنس، فقيل له: إنما قنت رسول الله ﷺ شهرًا، فقال: ما زال يقنت في صلاة الغداة حتى مات». **[سنن الدارقطني ١/ ١٧٨، السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٢١٠].**

الثاني: عدم مشروعية القنوت في صلاة الصبح. نسبه الترمذي إلى أكثر أهل العلم، وهو رواية عن الخلفاء الأربعة، وإليه ذهب أبو حنيفة وأحمد. **[المغني لابن قدامة ١/ ٧٨٧، والهداية للمرغياني ١/ ٤٥].**

والحجة لهم ما روي عن أنس: أن النبي ﷺ مكث شهرًا يدعو على أحياء من أحياء العرب ثم تركه. رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه. **[مسلم بشرح النووي ٥/ ١٨٠، وسنن النسائي ٢/ ٢٠٤، وابن ماجه ١/ ١٩٤].**

واعترض: بأن المراد من الترك هنا ترك الدعاء على هذه الأحياء بخصوصها لا ترك القنوت، بدليل الأحاديث السابقة عنه. [فقه سعيد بن المسيب ـ د/ هاشم جميل ١/ ٢٥٢].

وما روي عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ، إِنَّكَ قَدْ صَلَّيْتَ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، هَاهُنَا بِالكُوفَةِ نَحْوًا مِنْ خَمْسِ سِنِينَ، أَكَانُوا يَقْنُتُونَ؟، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ مُحْدَثٌ؟ [الترمذي في الصلاة (٤٠٢)]، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالعَمَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ العِلْمِ» وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «إِنْ قَنَتَ فِي الفَجْرِ فَحَسَنٌ، وَإِنْ لَمْ يَقْنُتْ فَحَسَنٌ»، وَاخْتَارَ أَنْ لَا يَقْنُتَ «وَلَمْ يَرَ ابْنُ المُبَارَكِ القُنُوتَ فِي الفَجْرِ». وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٤١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ عُمَرَ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ عُثْمَانَ فَلَمْ يَقْنُتْ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَ عَلِيٍّ فَلَمْ يَقْنُتْ»، ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّهَا بِدْعَةٌ. [النسائي في الصلاة (١٠٨٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

واعترض: بأن هذا ناف، وحديث أنس مثبت، والمثبت مقدم على النافي.

[نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٣٩٤]. [فقه السرايا للعيساوي ١٢٤-١٢٨].

٣٦ ـ الموت المهين للطغاة:

يقول أ/ الصوياني: «واستجاب الله ﷻ لدعاء نبيه ﷺ، فقد دعا ﷺ على عامر بن الطفيل فقال: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِي عَامِرًا**»، فأصيب الطاغية بمرض عضال، وصفه ﷺ بقوله: «**غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعِيرِ**»، وسماه ﷺ بـ «**الطاعون**» [(١)]، وهو وصف دقيق للطاعون الدبلي الذي يتميز (بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم العقد الليمفوية في منطقة الإرب وتحت الإبط، وكذا تضخم الطحال) [(٢)]، وهو ما أُصيب به عامر بن الطفيل حتى أصبح حبيسًا في بيت امرأة من قومه.

---

(١) عن مُعَاذَةَ بِنْتِ عَبْدِ الله الْعَدَوِيَّةُ، قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ ﵂، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَفْنَى أُمَّتِي إِلَّا بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا الطَّعْنُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الطَّاعُونُ؟ قَالَ: «**غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ، الْمُقِيمُ بِهَا كَالشَّهِيدِ، وَالْفَارُّ مِنْهَا كَالْفَارِّ مِنَ الزَّحْفِ**». مسند أحمد ٤٢/ ٥٣ رقم ٢٥١١٨، ٤٣/ ٢٥٦ رقم ٢٦١٨٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده جيد.

(٢) يقول د/ قلعجي: «من المعروف ان الطاعون على أنواع أهمها:

١- الطاعون الدبلي: ويتميز بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب، وما تحت الإبط، وكذا تضخم الطحال. ٢- الطاعون الرئوي القاتل. ٣- الطاعون الدموي: ويتميز بالطفح على سطح الجلد، وراجع الطب النبوي ص ١٤٧ من تحقيقنا للطبعة الخامسة.

وفي أثر عن عائشة ﵂ أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦: ١٤٥) أنها قالت لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**الطَّعْنُ قَدْ عَرَفْنَاهُ فَمَا الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير يخرج في المراق والإبط**». دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٤٦.

أصيب عامر بن الطفيل وتلاشت أحلامه بالتملك على أهل المدن في الجزيرة العربية، أو خلافة النبي ﷺ، وأما تلك الجيوش التي هدد النبي ﷺ بها، فقد تحولت إلى آلام تحبسه في بيت امرأة قد ولى عنه الناس ونفروا منه خشية العدوى، ففقد صوابه، وصرخ بمن بقي حوله فقال: «**غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعِيرِ فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي فُلَانٍ، ائْتُونِي بِفَرَسِي**، فَأُتِيَ بِهِ فَرَكِبَهُ فَمَاتَ وَهُوَ عَلَى ظَهْرِهِ».

هلك ذلك الطاغية الجبار العنيد كالمجنون بعد أن تطاير الناس من حوله متقززين خوفًا على أنفسهم من العدوى». [السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٣٠٢-٣٠٣].

ويقول أ/ حوى: «وقد ابتلى الله ﷻ عامر بن الطفيل بما يشبه السرطان أو الجدري، ومات في بيت امرأة من بني سلول، وهي قبيلة مزدراة، فكان ذلك أبلغ في الإهانة». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٣٢٢].

٣٧ ـ ملاحظات على سرية بئر معونة:

يقول الشيخ أبو زهرة: «ونلاحظ في هذه القصة بعض أمور:

أولها: أن أبا براء ما كان مسلمًا، وربما له ميل إلى الإسلام ولكنه زعيم في قومه، ويريد أن يكون مع قومه، فلا يكرههم حتى لا ينفروا ولكن يريد الدعوة إليهم، حتى إذا استأنس بإسلامهم أعلن إسلامه واكتفى بأن جعل الدعاة إلى جواره.

ثانيها: أن الغادر عامر بن الطفيل كان يعمل لحساب الشرك أو لحساب مكة، وما كان ليفعل لولا أنه وجد في قريش قوة، وهي ما أشاعوها من هزيمة محمد ﷺ.

وثالثًا: أن النبي ﷺ قد أرسل إليهم مبلغين حفظة عبادًا يحتطبون نهارًا، ويقومون ليلًا، ولم يرسل معهم أبطال حرب كالزبير وسعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب، وإن كان هؤلاء في عبادتهم وزهادتهم لا يقلون عن الأولين؛ لأنهم أُسُود فوارس بالنهار قوام بالليل».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٤٦].